

التَّائِيحُ الْإِسْلَامِيُّ

مَوَاقِفُ وَعَبَر

(١٣)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المسنقلة

الجزء الأول

دكتور

عبد العزيز بن عبد الحميد

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار النشر والنشر

للنشر والنشر

جدة

دار النشر والنشر

للنشر والنشر

في بيان علم الربا

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد: فقد سبق نشر الكتاب الأول من سلسلة « التاريخ الإسلامي / مواقف وعبر » وموضوعه « السيرة النبوية » والكتاب الثاني وموضوعه « الخلفاء الراشدون » وهذا هو الكتاب الثالث وهو يشتمل على المواقف والعبر من تاريخ الأمويين والعباسيين والعثمانيين والدويلات المستقلة المعاصرة لهم .

وليس المقصود بهذا التاريخ رصد كل مادونه المؤرخون من تاريخ هذه الدول ، وإنما المقصود ذكر ما يوافق عنوان هذا الكتاب وهو المواقف والعبر .

وقد سرت في ترتيب هذا الكتاب على التنظيم الجهوي ، وذلك بذكر أحداث كل جهة في عنوان واحد مرتبة على الترتيب الزمني ، ماعدا المواقف من سيرة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى فإن موضوعاتها تختلف عن بقية موضوعات هذا الكتاب .

وقد بدأت بذكر جهاد المسلمين مع الروم وذلك في عهد الأمويين والعباسيين ومن أُلْحِقَ بهم والعثمانيين ، ثم ذكرت جهاد المسلمين في بلاد السند والهند في عهد الأمويين والعباسيين وفي عهد الدويلات الإسلامية في الهند ، ثم ذكرت جهاد المسلمين في المغرب وفي الأندلس ، وكذلك الفتوح في المشرق في العهود المذكورة أو بعضها .

أما مواقف عمر بن عبد العزيز فقد استوعبت جزءاً كاملاً وهو الجزء الخامس عشر .

ويشتمل هذا الكتاب على موضوعات جهادية وإدارية وأخلاقية وتربوية .

مصادر الكتاب :

لقد اعتمدت في الكتابة عن هذه العهود على عدد من الكتب من أبرزها « تاريخ الرسل والملوك » للطبري ، و « البداية والنهاية » لابن كثير و « الكامل في التاريخ » لابن الأثير و « سيرة عمر بن عبدالعزيز » لابن عبد الحكم .

وقد سبقت ترجمة موجزة للطبري وابن كثير في الكتاب السابق « الخلفاء الراشدون » ، وسأذكر ترجمة موجزة لابن عبد الحكم وابن الأثير .

عبد الله بن عبد الحكم :

هو عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصري ، الإمام الفقيه مفتي الديار المصرية ، وهو صاحب الإمام مالك بن أنس ، ولد سنة خمس وخمسين ومائة .

وثقه أبو زرعة ، وقال ابن واره : كان شيخ أهل مصر ، وقال أحمد العجلي : لم أر بمصر أعقل منه ومن سعيد بن أبي مريم . توفي رحمه الله تعالى في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومائتين ،

وذكر له من المؤلفات كتاب « الأموال » وكتاب « سيرة عمر بن عبدالعزيز » (١) .

وقد اعتمدت في كثير مما نقلته من سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى على هذا الكتاب .

ابن الأثير :

هو المؤرخ العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني .

من أشهر مؤلفاته « الكامل في التاريخ » و « أسد الغابة في معرفة الصحابة » .

قال عنه الحافظ الذهبي : كان إماماً علامة أخبارياً أديباً متفتناً رئيساً محتشماً .

وقال عنه ابن خلكان : كان بيته بالموصل مجمع الفضلاء ، اجتمعت به بحلب فوجدته مكماً في الفضائل والتواضع وكرم الأخلاق .

توفي في شهر شعبان من سنة ثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى (٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٢٠ - ٢٢٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٥٣ - ٣٥٦ ، البداية والنهاية ١٣ / ١٤٩ - ١٥٠ .

مواقف وعبد
فى
جهاد المسلمين مع الروم

الجهاد مع الروم

فى

عهد الأمويين

تقدم الكلام على مواقف فتوح الشام في عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وبقي الإشارة بإيجاز إلى المواجهات القتالية المستمرة بين دولة الإسلام في الشام ودولة الروم منذ عهد عمر رضي الله عنه ، فإن الحرب لم تهدأ لبقاء دولة الروم في كثير من ممالكها .

وبعد استقرار حكم المسلمين في الشام في أواخر عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فإن الروم أيسوا من عودة الشام إليهم فلم يفكروا في غزوه إلا في فترات اختلاف المسلمين وحدثت الفتن بينهم كما هو الحال في عهد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، حيث عزم ملك الروم على غزو الشام فهدده معاوية رضي الله عنه بالعزم على الصلح مع علي رضي الله عنه ثم التوجه نحوه لتأديبه .

وكذلك في عهد عبد الملك بن مروان حينما كان في قتال مع مصعب بن الزبير .

أما فيما عدا ذلك فإن المسلمين كانوا ينظمون الغزوات ضد الروم في أكثر السنوات صيفاً ويسمونها الصوائف ، وكان القصد من هذه الصوائف إضعاف دولة الروم وحماية دولة الإسلام ، وكانوا أحياناً يطيلون الغزو ويتوغلون في بلاد الروم ويشتون بها ، وقد بلغوا القسطنطينية عدة مرات .

جهاد الروم في عهد معاوية

الغزوات الأولى :

غزا المسلمون بلاد الروم في عهد معاوية رضي الله عنه عدة غزوات قبل الغزوة الكبرى التي كانت بقيادة يزيد بن معاوية .

وقد ذكر المؤرخون هذه الغزوات باختصار ، فمن ذلك أنهم ذكروا أن المسلمين غزوا بلاد الروم سنة اثنتين وأربعين ، فهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارتهم .

ثم غزوهم في سنة ثلاث وأربعين بقيادة بسر بن أرطاة .

ثم غزوهم في سنة ست وأربعين بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأقاموا فيها فصل الشتاء .

ثم غزوهم في سنة ثمان وأربعين بقيادة أبي عبد الرحمن القيني وأقاموا في الشتاء في أنطاكية (١) .

غزوة القسطنطينية :

وبعد أن قام أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه بإرسال عدد من الجيوش في عدة سنوات رأى أن الفرصة مناسبة لبعث جيش كبير لغزو القسطنطينية بعد أن أضعف دولة الروم وبث الرعب في قاداتها وجنودها ، فبعث جيشاً كبيراً بقيادة ابنه يزيد في سنة تسع وأربعين ، وفيه عدد من الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو ابن العاص وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم ،

(١) تاريخ الطبري ٥/ ١٧٢-٢٣٢ ، البداية والنهاية ٨/ ٢٥-٣٤ ، تاريخ ابن خلدون/ ٩ .

وقد قال رسول الله ﷺ « أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم » أخرجه الإمام البخاري (١) وكان ذلك الجيش أول من غزا القسطنطينية .

ومما جرى في هذه الغزوة ما أخرجه الإمامان أبو داود والترمذي من حديث أسلم أبي عمران التجيبي قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد (٢) والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو فقال الناس : مه ، مه ، لا إله إلا الله ، يلقي يديه إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، لما نصر الله تعالى نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا : هلم نقيم في أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد .

قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية (٣) .

فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد في

(١) صحيح البخاري ، رقم ٢٩٢٤ ، الجهاد (١٠٢/٦) .

(٢) يعني بذلك الجماعة الذين غزوا من المدينة ، وفي رواية الترمذي : وعلى الجماعة فضالة بن عبيد .

(٣) سنن أبي داود ، رقم ٢٥١٢ ، الجهاد (٢٧/٣) ، سنن الترمذي ، رقم ٢٩٧٢ ، التفسير ٢١٢/٥ .

سبيل الله تعالى ، وأن الهلاك الحقيقي هو هلاك الآخرة بسبب التهاون في واجبات الإسلام .

ولقد قاتل المسلمون أعداءهم حول أسوار القسطنطينية ، واستشهد أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه هناك ، وقد أوصى قبل موته أن يقربوه ما استطاعوا من أرض الروم فدفنوه قريبا من السور (١) .

ولم يتمكن المسلمون من فتح القسطنطينية هذه المرة لقوة أسوارها ومثانتها واستعداد الروم لتحمل الحصار لمدة طويلة ، فعاد المسلمون إلى بلادهم ، ولكنهم كسبوا من وراء ذلك إظهار قوة دولة الإسلام وأن باستطاعتها أن تغزوهم في عقر دارهم ، وهذا يجعل الروم يرتدعون عن محاولة غزو بلاد الإسلام في حال ضعف الدولة الإسلامية .



(١) انظر تاريخ الطبري ٢٣٢/٥ ، البداية والنهاية ٨/٣٤-٦١ .

جهاد الروم في عهد عبد الملك وابنه الوليد

الاستعداد لغزو الروم في عهد عبد الملك :

إن أهم المعارك الحاسمة بين المسلمين والروم في هذا العهد مذكره المؤرخ ابن أعثم الكوفي قال: وتحركت الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم فاجتمعوا في خلق عظيم وعزموا على مفاجأة المسلمين في دارهم وأخذ الشام من أيديهم ، وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فنأدى في أهل الشام فجمعهم في المسجد الأعظم ، ثم صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن العدو قد كَلَبَ عليكم وطمع فيكم وهُتِمَ عليه لترككم العمل بطاعة الله تعالى واستخفافكم بحق الله ، وتشاقلكم عن الجهاد في سبيل الله ، ألا وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم فماذا عندكم من الرأي ؟ قال : فأجابه الناس بأحسن الجواب ورغبوا فيما رغبهم فيه من الجهاد وعزموا على ذلك .

قال : فعندها أمر عبد الملك بن مروان فكتب له أربعة كتب ، كتاب منها إلى أبان بن عثمان - وهو عامله على الحجاز - أن يوجه إليه برؤساء أهل الحجاز وفرسانهم ، وكتاب إلى علقمة بن مرداس الخولاني - وهو عامله على اليمن - أن يوجه إليه بفرسان أهل اليمن ، وكتاب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان - وهو عامله على بلاد مصر - أن يشخص إليه بنفسه في أجناد مصر ، وكتاب إلى الحجاج ابن يوسف أن يوجه إليه بأجناد أهل العراق .

ثم كتب أيضاً إلى أخيه محمد بن مروان وإلى ابنه مسلمة وهما

يومئذ في بلاد أرمينية وأذربيجان فأشخصهما إليه في جميع من معهما من أجنادهما (١) .

هذا وإن كثرة هذه الجيوش التي حشدتها عبد الملك بن مروان من أنحاء بلاد الإسلام دليل على ضخامة الجيش الرومي الذي عمل الروم على تجهيزه لغزو بلاد المسلمين .

وإن ماجاء في خطبة عبد الملك هذه من التذكير بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته والاهتمام بالجهاد في سبيله ، وأن ذلك حصن الأمة الحصين وسبب رهبة الأعداء منهم ، وأن الإخلال بذلك سبب هوان أمة المسلمين على أعدائهم . . إن اهتمام عبد الملك بذلك يدلنا على الوجه الآخر لخلفاء المسلمين في عصورهم الذهبية الذي عتَم عليه بعض المؤرخين ولم يبرزوه بالدرجة الكافية بينما أبرزوا خلافات الولاة وحروبهم الداخلية وأنماط حياتهم التي تميل أحيانًا إلى مظاهر الدنيا بقدر كبير من البسط والتفصيل .

إن هذه الخطبة وأمثالها تعتبر امتدادًا لما اشتهر به عبد الملك من التفوق في العلم الشرعي حيث كان من أكابر طلاب العلم الذين تعمقوا في العلم على علماء المدينة النبوية ، كما تعتبر امتدادًا لما

(١) الفتوح لابن أعثم ١٢٢/٧ ، وهذا الكتاب للمؤرخ أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي، وقد قال عنه ياقوت الحموي : « الإخباري المؤرخ وهو عند أصحاب الحديث ضعيف » - مقدمة الفتوح لابن أعثم / ب - وقد ذكرت في هذا الجزء جملة من أخبار الجهاد الإسلامي في بلاد الروم ، ولا يؤثر في هذا القدر المنقول عنه كونه ضعيفا عند أهل الحديث لأن هذا المنقول لا يترتب عليه أي حكم شرعي وإنما هو بيان لمواقف بعض التابعين الجهادية .

اشتهر به في شبابه من العبادة حيث كان وإخوة له يرابطون في المسجد النبوي بين الصلوات للصلاة والذكر والتلاوة .

إننا لاننكر أن من المؤرخين من يذكر ما للولاة من بعض المحاسن وماعليهم من المآخذ ، ولكن الاهتمام في ذلك كان في ذكر جوانب الإصلاح التي تتعلق برفاهية الأمة وتقوية أمنها ورخائها .

والذي ينبغي لفت النظر إليه إلى جانب ذلك الإشارة إلى مدى فهم أولئك الولاة للإسلام وتطبيقهم لأحكامه وآدابه ، ومدى صلتهم بالله تعالى وتذكرهم لعوامل النصر وعوامل الانهزام ، وعوامل التمكين في الأرض وعوامل الانهيار الحقيقية التي تقوم على تطبيق الإسلام في الأرض أو الإخلال بشيء من ذلك .

ومما ينبغي الإشارة إليه أخيراً الإشادة بدقة الرصد الحربي لدى المسلمين في عصورهم الأولى ، حيث علم عبد الملك عن عزم ملك الروم على غزو بلاد المسلمين بجيش كبير فأعد للأمر عدته واستعد لدفع البلاء قبل حلوله بما يتناسب مع حجمه وفي الوقت المناسب للقضاء عليه .

قال ابن أعثم في روايته المذكورة :

فلما اجتمع الناس من جميع الأمصار قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم قد علمتم ما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضل الجهاد وما وعد الله عليه من الثواب ، ألا وإني قد عزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة إلى « أليون » صاحب الروم فإنه قد طغى وبغى وقد بلغني أنه قد جمع للمسلمين جموعاً كثيرة وعزم على

غزوكم ومفاجأتكم في دياركم وقد علمت أن الله تعالى مهلكه ومبدد^{٢٠} شمله وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه ، وقد جُمِعتم من كل بلد ، وأنتم أهل البأس والنجدة والشجاعة والشدة ، وأنتم من قام لله بحقه ولدينه بنصرته وهذا ابني مسلمة وقد أمرته عليكم فاستمعوا له وأطيعوا يوفقكم الله ويرشدكم لصالح الأمور ، قال فقال الناس : سمعاً وطاعة ياأمير المؤمنين ، قال : فأمرهم عبد الملك بن مروان فعسكروا خارجاً عن مدينة دمشق في خلق عظيم .

قال : وخرج إليهم عبد الملك بن مروان فعبأهم هنالك فجعل على كل قبيلة من القبائل من ساداتهم يقتدون برأيه ، ويتتهون إلى أمره ، ثم قال لابنه : يا بني إني قد ندبتك لهذا الأمر وشرفتك بهذا الجيش فجعلته لك شرفاً وذكرًا إلى آخر الأبد ، فكن يا بني للمسلمين باراً رحيماً وأميراً حليماً ، ولا تكن عنيداً كفوراً ولا مختالاً فخوراً ، واعلم يا بني أن الروم سيلقونك بجيش كثير وجمع كبير ، فثق بالله واستعن به وتوكل عليه ، فكفى به ولياً وناصرًا ، وانظر يا بني لايَهُوْلُوكَ ماترى من جمع الروم وكثرة عددهم فإن الله تبارك وتعالى بفضله ومنه مهلكهم وضارب وجوههم ومرعب قلوبهم ومزلزل أقدامهم ، ومعك يا بني بحمد الله خلق كثير ، فإن عزمت على حرب عدوك فاجعل عمك محمد بن مروان على ميمنتك ، واجعل ابن عمك محمد بن عبد العزيز على ميسرتك ، واجعل محمد بن الأحنف بن قيس على طلائعك ، وعبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان على جناحك واعتمد في حربك على البطال بن عمرو فإنه

بطل شجاع مقدم [شجاع] ^(١) وانظر يا بني لا تكسل ولا تفشل ولا تجزع ولا تهلع ، فإنك إن لم تفعل ذلك وتعديت ما أوصيتك به استوجبت من الله المقت ، ومن عباده البغض ، ومن ملائكته اللعن فإن الله تعالى يقول ﴿ وَمَنْ يُولِكُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال : ١٦] .

قال : ثم أقبل عبد الملك بن مروان إلى الناس فقال : أيها الناس المسلمون أنتم إخواني وأعواني ، وهذا ابني مسلمة وهو سيفي ورمحي وسهمي ، وقد رميت به في نحر العدو ، وبذلت دمه ومهجته لله عز وجل ، ورجوت أن يقضي الله به على جيش الروم فأعينوه واعضدوه وقوموا معه ، وانصروه إذا كسل ، وشجعوه إذا فشل ، وأيقظوه إذا غفا ، وفهموه إذا هفا ، فإن أصيب فالأمير بعده عمه محمد بن مروان ، فإن أصيب فابن عمه محمد بن عبد العزيز فإن أصيب فاختراروا من أحببتم الأفضل فالأفضل ، والخيار في ذلك إليكم ، والسلام .

ثم دعا مسلمة فعانقه وقبّل بين عينيه وقال : السلام عليكم يا ولدي وقرة عيني وثمرة فؤادي ، فإن نفسي تحدثني أنني لا أراك ولا تراني بعد هذا أبدا ، ثم بكى ، وبكى الناس لبكائه ، وودع الناس بعضهم بعضا ، ورحلوا من عسكرهم يوم الجمعة ، وذلك في أول

(١) هكذا وردت في الرواية ولم أجد لها معنى يناسب السياق إلا أن تكون « مُشَيِّعٌ » بمعنى شجاع ولكن هذا الوصف ذكر قبل ذلك ، والبطال اسمه عبد الله بن عمرو الأنطاكي .

يوم من رجب بعد صلاة الجمعة ^(١) ، وعبد الملك بن مروان يشيّعهم إلى أن نزلوا على فرسخين من مدينة دمشق ، فأقاموا يومهم ذلك هناك ، فلما كان من الغد ودعهم عبد الملك بن مروان ورجع إلى دمشق في نفر من أصحابه .

قال : وسار القوم في الآلة والسلاح الكامل والزيّ الحسن والخيّل العتاق والبراذين المَطْهَّمة حتى نزلوا بموضع يقال له «مرج دابق» ^(٢) .

قال : فلم يزل مسلمة هنالك نازلا والناس يخرجون إليه ويتلاحقون به من كل موضع راغبين في الجهاد حتى صار في عسكر عظيم ، ووافاه الفتية المدنيون التائبون ^(٣) ، وسيأتي خبرهم بإذن الله تعالى .

هذا وإن في خطبة عبد الملك هذه ووصيته لولده ولجنده مثالا لما قدمت ذكره عنه من قوة ارتباطه بالله تعالى وإدراكه العميق لعوامل النصر المعنوية ، ولاغرابة عليه في ذلك فهو من التابعين الذين نهلوا من علم الصحابة رضي الله عنهم وتلقوا التربية على أيديهم ، ففي خطابه لجيش المسلمين يبين ما جمعه الروم لهم من الجموع الكثيرة ثم يحكم على نتيجة المعركة معهم بحسن الظن بالله تعالى وقوة الأمل في نصره لأوليائه وإهلاك أعدائه ، وهذه بداية طيبة لتلك المعارك التي

(١) يعني من سنة ست وثمانين كما سيأتي في سياق مواقف المعركة ، وانظر الكامل ١٠٦/٤ .

(٢) هي قرية قرب حلب بينها وبينها أربعة فراسخ - معجم البلدان ٣/٤ .

(٣) الفتوح لابن أعمش ١٢٣/٧ - ١٢٥ .

سيخوضها معهم المسلمون ، حيث لم يعتدَّ عبد الملك بقوة جنده وحسن استعدادهم المادي ، بل جعل الأمر كله بيد الله تعالى .

وفي وصيته لابنه مسلمة نجده يوصيه بحسن السياسة مع جنده حيث يذكِّره بالالتزام بمكارم الأخلاق التي تجعله محبوباً لدى جنده فأوصاه بالبر الذي يصله بجنده ، وبالرحمة التي تحجزه عن الظلم ، وبال حلم الذي يملك به غضبه فلا يتصرف إلا بعقله السليم ، ونهاه عن مساوئ الأخلاق التي تجعله مُبغضاً لدى جنده ، حيث نهاه عن العناد الذي يدفعه إليه الاعتداد بالرأي وعدم قبول مشورة أهل الخبرة ، ونهاه عن كفر النعمة الذي يتمثل بعدم تقدير أهل الفضل ، والإمساك عن شكرهم ، وذلك يحجب عنه طاقاتهم الفعالة وقدراتهم المؤثرة فيضعف إنتاجهم ويكون الفشل سبيلهم وسبيلهم ، ونهاه عن الخيلاء والفخر ، لأن هذا الخلق السيء يطمس من فكر الإنسان محاولة إدراك عيوبه والطموح نحو الكمال ، حيث يكون الفكر مشغولاً بتلمس ما يرضي غرور النفس وإن كان سراياً لا وجود له في الواقع ، إلى جانب كونه يحجب عن القائد نتائج فكر المفكرين من أتباعه ، ويحدد علاقتهم به بنوع من المجاملة ، والاكتفاء بأداء الواجبات الضرورية الظاهرة بشيء قليل من الكفاءة والطاقة .

إلى آخر هذه الوصايا التي من أبرزها نهيه ابنه القائد عن الكسل والفشل والجزع والهلع ، وتذكيره بأنه إن وقع في شيء من ذلك فقد استوجب المقت من الله تعالى ، والبغض من عباده واللعن من ملائكته ، وهو تأكيد مرة أخرى على لزوم الصلة بالله تعالى وتذكُّر

عظمته ورقابته ، وأن المعولَّ عليه في جميع الأمور هو طلب رضوانه واجتناب سخطه ، وعلى ذلك يترتب طلب رضوان الملائكة والمتقين من عباد الله جل وعلا .

ومن أبرز تلك الوصايا تذكير الجند بنصر القائد إذا كسل وتشجيعه إذا فشل ، وإيقاظه إذا غفا ، وتفهمه إذا هفا ، فالقائد لا كيان له ولا قوة إلا برقابة جنده ونصحهم إياه ، وبذلهم كل طاقتهم معه في خدمة الهدف الأعلى الذي يجاهدون من أجله .

هذا وقد حصل ماتوقعه عبد الملك من عدم لقائه بابنه مسلمة بعد ذلك اليوم حيث توفي عبد الملك بعد ذلك بشهرين ونصف في منتصف شوال من عام ستة وثمانين (١) .



(١) الكامل ١٠٢/٤ .

خبر الفتية التائبين :

ذكر المؤرخ أحمد بن أعثم الكوفي - في سياق أخبار غزو المسلمين لبلاد الروم - خبر الفتية العشرة الذين كانوا في المدينة على شيء من المعاصي واللهو ثم تابوا إلى الله تعالى توبة نصوحا وخرجوا مجاهدين في سبيل الله تعالى ، وقد ذكر أسماءهم وماهم فيه من اللهو المحرم والمعاصي من روايته عن عيسى بن دأب إلى أن قال : وكان هؤلاء الفتية العشرة في كل نعمة سابعة لا يأتي عليهم يوم من الأيام إلا وهم أشد سرورا وأطول جبورا من يومهم الذي مضى إلى أن وقع الخبر إليهم بأن عبد الملك بن مروان قد وجه جيشا إلى بلاد الروم .

قال : وأراد الله عز وجل ما أراد من الخير ، وأحب الله عز وجل أن ينقذهم مما هم فيه من ظلمة المعاصي إلى نور الطاعة .

قال : فأول من ارتدع منهم عما هو فيه ودعته نفسه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى يحيى بن عمرو القرشي ، فعزم على ذلك وجعل يسره في نفسه ولا يذكر لإخوانه شيئا مما قد عزم عليه ، وهو مع ذلك يجالسهم ويحدثهم .

قال : فبينما هم ذات يوم على شرايبهم ولهوهم إذ أخذوا شيئا من تناشد الأشعار التي قد أحدثوها بينهم فجعل كل واحد منهم يقول شيئا ، ويحيى بن عمرو القرشي ساكت لا ينطق بشيء حتى فرغوا من نشيدهم ، فأحب أن يلقي إليهم شيئا مما قد عزم عليه من أمر التوبة ونزوع عما هو عليه فأنشأ يقول :

قالت سلوتَ فقلتَ لستَ بجاهد أنا والمهيمنِ ذي الجلال الواحد
 وسلختَ ودكَّ عن فؤادي مثلما سلخَ النهارُ من الظلام الراكد
 قالت فعُدْ فالعود عندي أحمدُ فأجبتها هيهات لست بعائد
 إنني أخاف عذاب رب سرمد تبدو فضائحه ولست ببائد
 قال : فلما سمع القوم من يحيى بن عمرو القرشي هذه الأبيات
 أنكروا ذلك منه إنكاراً شديداً بليغاً ، ثم إنهم عَصَوْهُ بالسُّتْهُمْ وعذَلُوهُ
 فأكثروا فيه من عذله ولومه ، ثم قالوا : يا هذا قد سمعنا منك شيئاً
 نخاف أن يكون فيه تفريق جماعتنا وتشتيت ألفتنا ، وإننا نناشدك في
 ذلك .

قال : فتبسم يحيى بن عمرو القرشي ثم حرك رأسه وأنشد :
 إن في الله ما علمت سرورا لا يُرى في حوادث الأقدار
 غير أنني تركت ذلك خوفاً وحذاراً من شرِّ عارٍ ونار
 فأنيبوا إلى الإله وتوبوا كم إلى كم نقيم في الإصرار
 قال : فلما سمع القوم ذلك أقبل عليه سليمان بن عمرو - يعني
 أخاه- فقال : والله يا أخي ما عدا جميعُ تكلمت به سويداء قلبي ولقد
 أخذ بمجامع قلبي وعقلي حتى لقد غلب على سمعي وصدري وحال
 بيني وبين لذتي ، ولقد علمت أن الأمر كما ذكرت وأن الرغبة فيما
 رغبتَ ، قال : ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول :

يامن يلوم موقفاً يدعو إلى إسعاده
 أبدى النصيحة إذ دعا لم يأل في إجهاده

لاتنكروا ما قاله مِنْ بَذْلِهِ لِرَشَادِهِ

فلقد أتى بنصيحة موصولة بسداده

قال : فلما سمع القوم كلام سليمان بن عمرو وميله إلى أخيه جعل بعضهم يقول لبعض : هذا ما كنا نحذره من تفريق الألفة وتكدير العيش ، فعند الله نحسب ما فُجعنا به منكم !

وهكذا استجاب لنداء الجهاد أحد هؤلاء الفتية العشرة وهو يحيى ابن عمرو القرشي ، ودبَّ الإيمان في كيانه ، وسَرَتْ في جسمه الحياة كما يسري الماء في العود اليابس ، وتحوَّل في لحظات إلى مؤمن تقي يتذكر ببالغ الأسى والحسرة ماضيه المظلم فيزيده ذلك إيماناً وعزماً على الماضي في طريق الهداية .

ولكن أُنَى له أن يَنعم بنوم أو يهدأ براحة وأصحابه الذين كان معهم في طريق الغواية مازالوا مرتكسين في هذا الطريق المعوجَّ ، ففكر كثيراً في أمر هدايتهم ، وجعل هذا الأمر هو قضيته المهمة في حياته ، وكان الأمل في هدايتهم يَحْدُوهُ إلى العمل على اجتذابهم ، وهو على يقين بأن الله تعالى الذي حوَّل قلبه إلى الهداية قادر على أن يحول قلوب أصحابه . . فقرر أن لا يقاطع مجالسهم ، وأن يحضرها بروح الداعية المنقذ لابروح المستمتع المداهن .

وإذا بإيمانه القوي يدفعه إلى قول كلمة الحق التي سيغضب لها جميع أصحابه ، ولم يُبال بما سينتج عن ذلك من احتمال تعرضه للأذى على أيديهم ، أو على الأقل محاولة هجره وإبعاده عنهم .

قال : ثم انصرف القوم من مجلسهم يومهم ذلك وهم مغمومون

بأمر يحيى بن عمرو وأخيه سليمان ، فلما كان في الليلة المقبلة اجتمعوا أيضاً فجلسوا ، فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم يحيى بن عمرو فقال : يا إخوتي ويا أخلائي ومن تفر عيني بصلاحهم واجتماع كلمتهم ، إنه ينبغي للراقد أن يستيقظ من رقدته ويستجلي عن غشوته ، ومهما شككتم في شيء فلا تشكوا في الموت ، إنه نازل بي وبكم ، وأسأل الله تعالى العصمة والتوفيق والتسديد لي ولكم ، والسلام ، ثم أنشأ يقول :

دعوتكم للرشد والنصح جاهداً ومازلت للإخوان مُدْكَنت ناصحا
فإن تقبلوا نصحي تنالوا سعادةً وتأتوا طريقاً بينَ القصد واضحا
ومن يترك القصد المنيرَ طريقه يلاقي غداً ناراً ويخلد كالخا
وهكذا تبين لنا في هذا الخبر المؤثر الذي عاد فيه هؤلاء الفتية إلى رشدهم بعد أن ارتكسوا في الغواية أن هداية رائدهم إلى الحق وهو يحيى بن عمرو القرشي كانت بعد سماعه نداء الجهاد ، حيث أحیی الجهاد ضميره ونبهه من غفلته ، فتحول إلى داعية هدى يحاول إنقاذ أحبته من الهلاك الذي كان مشاركاً لهم فيه .

وبهذا نلمس فائدة مهمة من فوائد إحياء الجهاد في سبيل الله تعالى ، حيث يتنبه الغافلون والسادرون في لهوهم إلى ماتعانيه أمتهم ، وما يُحْدق بها من خطر الهلاك والذلة على يد الأعداء ، فتَحْيى في نفوسهم معاني التحدي للأعداء ، والحفاظُ على مجد الأمة وعزها المتمثل في بقاء دينها ودولتها .

وحينما يقارن اللاهون العابثون بين وضعهم المزري وقد تعجلوا

نصيبهم من النعيم في حياتهم الدنيا ونسوا آخرتهم ، وبين وضع المجاهدين الذين طلقوا الدنيا ورفضوا متاعها الزائل ، غيراً على آخرتهم ، وحرصاً منهم على رفعة درجاتهم في الجنة . . حينما يقارنون بين هذين الوضعين تسري في كيانهم روح قوية تعصف بهم ، فتجعلهم يترفعون عن الدنيا التي كانوا يعتبرونها قوام الحياة وبهجتها ، وتطمح عقولهم نحو رضوان الله تعالى ونعيم الجنة ، فيرون أن أقرب الطرق إلى ذلك أن يُقدِّموا أرواحهم فداء لدينهم وإخوانهم المسلمين .

وهكذا فعل هؤلاء الفتية بعدما هداهم الله تعالى ، حيث شاركوا في معركة فتح « طوانة » وكانوا عاملاً مهماً في الفتح ، وقدموا أرواحهم جميعاً شهداء في سبيل الله تعالى .

هذا ولو نظر السادرون في غيهم اللاهون عن حماية أمتهم ومستقبلها . . لو نظروا إلى مصلحتهم الدنيوية المستقبلية فضلاً عن الآخرة لهبوا سراعاً للدفاع عن بلادهم ودولتهم لأن التمتع الذي يعيشون فيه في ظل الأمن والرخاء القائمين على استقرار الدولة وانتصارها على الأعداء سينقلب رأساً على عقب حينما يستولي الأعداء على دولة الإسلام ويتخذون المسلمين عبيداً لهم .

إن هؤلاء الذين يستمرون في لهوهم ولا يشاركون أمتهم في البناء والحماية والدفاع يشبهون من يعيش في بستان يجني منه مالذ وطاب وهو يشاهد حريقاً هائلاً على مسافة منه ويتوقع عقلاً أن يصل إليه ليحرق في بستانه الأخضر واليابس ، وهو مع ذلك غارق في متعته ولهوه ولا يشارك في صد هذا الحريق الذي أفنى ما حوله .

فهل يُعتبر هذا من العقلاء ؟

فكيف الحال إذا كان بالجهاد في سبيل الله تعالى مستقبل الدنيا والآخرة ؟ وهل تُوضع الدنيا بكل ما فيها من نعيم في ميزان مع الآخرة ؟ ! هذا وإننا لنجد في الأسلوب التربوي الذي سلكه يحيى بن عمرو القرشي دلالة على تفوق ذلك المجتمع من الناحية التربوية . . هذا التفوق الذي كان نتيجة لعلو كعب العلماء آنذاك في الدعوة والتربية ، فهو لما هداه الله جل وعلا لم يقاطع رفاقه الذين تحولوا في عينه بعد الهداية إلى رفاق سوء ، بل جعل أكبر همه أن يحاول إنقاذهم من مواطن الهلاك وأسباب الشقاء .

وبالرغم من كونهم لأموه وعنفوه وشددوا النكير عليه . . وبالرغم من هفوتهم الظاهرة حيث ناشدوه الله تعالى أن يقرهم على باطلهم وأن يسكت عن دعوة الحق فإنه لم يغضب ، ولم يُشغل نفسه في رد باطلهم أو الدفاع عن نفسه ، وإنما ركز في آيات من الشعر على إيقاظ ضمائرهم التي لا يزال فيها بقية من حياة ، وذلك بتذكيرهم بمصيرهم بعد الموت ، وكان لهذا المنهج القويم أثر ظاهر في هداية من اهتدى منهم ، ثم سلك إخوته الذين هداهم الله تعالى نفس هذا المنهج مع بقية المجموعة كما سيأتي .

قال عيسى بن دآب راوي الخبر : ثم أقبل عليهم سليمان بن عمرو فقال : يا إخوتي ومن قد عظمت حقوقهم علي ، وابيضت أيديهم عندي ، إنكم قد علمتم ما افترقنا عليه في ليلتنا الماضية ، ومادعاكم إليه أخي يحيى بن عمرو الناصح لكم الشفيق عليكم ، فإن تَجِيبُوا إلى التوبة والنزوع عما أنتم عليه فحفظكم أصبتم ، وإلى الخير

أجبتهم ، وإن تقيموا على ماأرى من لغظكم واتباعكم أهواءكم فإنني
أسأل الله لكم التوفيق - والسلام .

ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول :

سألت إلهي أن يؤلف بيننا على الخير كالتأليف في سائر الدهر
فقد عشتُمُ عصراً وعصراً وإننا لفي غمرة جهلاء نهوي وماندري
نُلْجَلج في بحرٍ سكارى بِحَيْرَةٍ فحتَّى متى لسنا نفيق من السكر
وتوبوا تنالوا جنة الخلد إنما ينال جنان الخلد من كان ذا صبر
قال : فلما سمع بشر بن مطر الأزدي مقالة يحيى وسليمان بن
عمرو واستحكم قولهما في قلبه أعجبه ذلك ، ثم قال : لقد علم من
أعين عقلا وأحضرهما أين موضع الحق - والسلام .
ثم أنشأ يقول :

لعمري لئن بعث الهداية بالعمى وآثرت غير الحق إنني لخاسر
أترك حظي بعد إذ أنا قادر على أخذه والحق فيه بصائر (١)
سأجبر نفسي عن هواها وغيها بصبر قوي الحزم والحر صابر
قال : فلما سمع القوم مقالة بشر بن مطر الأزدي غمهم ذلك
غما شديداً ، ثم أقبل هارون بن الحصين على أصحابه فقال : إنا لله
وإنا إليه راجعون ، ما أعظم الرزية بفرقتكم ، وأجل المصيبة بتباعدكم !
والله ما أظن هذا الأمر إلا مشتتاً جماعتنا ، مكدرنا علينا صفو عيشنا ،

(١) يعني هل أترك حظي من نعيم الآخرة وأنا قادر على أخذه بالعمل الصالح في الدنيا؟

لأن الذي دعوتنا إليه من مزايلة مانحن فيه شديد ، وهو أثبت وأرسخ من أن يزيله العظاات أو يقلعه الصفات .

قال : ثم افترقوا أيضاً ليلتهم مغمومين .

وهكذا وجدنا هؤلاء الثلاثة الذين هداهم الله حريصين على هداية رفاقهم بالكلام المؤثر نثراً وشعراً مع التركيز على ترغيبهم بالجنة وترهيبهم من النار ، وآخرين من المجموعة كانوا يقومون بدعوة مضادة للبقاء على ما هم فيه من اللهو والمعاصي .

ولكن الله تعالى أعان دعاة الخير منهم بالرؤى الصالحة التي أراها اثنين من رفاقهم كان لها الأثر في هدايتهم .

يقول عيسى بن دآب في سياق روايته : فلما كان في الليلة الثالثة اجتمعوا فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم محمد بن زرعة العبدي فقال : يا إخوتاه اسمعوا عني كلامي وتدبروا بعقولكم فقد أتيتكم بأعجوبة ، فقالوا : هات مابدا لك ، فقال : اعلموا أنني فارقتم الليلة وصرت إلى منزلي [فأرقت] ^(١) أرقاً شديداً ، حتى إذا كان قبيل الصبح أغفيت إغفاءة فإذا أنا بآت قد أتاني في منامي وهو يقول هذه الآيات :

ياتارك القصد بعد معرفة	وسالكاً غيره من الطرق
يحيى وأصحابه على رشدٍ	كما جلا الليل ساطعُ الفلق
فلا تكوننَّ كالمقيم على	دَحْضٍ مَزَلٍّ أشفى على غرق

(١) ليست في الأصل .

قال : فلما سمعت ذلك استيقظت فزعاً مرعوباً حتى كاد الخفقان
أن ينزع قلبي حتى سكّنتني من كان بحضرتي .

قال : فأقبل عليه يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري ، فقال :
يا أخي فكأنني والله وإياك إنما كنا على أمر واحد غير أن الألفاظ
مختلفة ، وذلك أني قمت عن المجلس حين افترقنا بالأمس وبني من
الحرقة (١) والأسف لتشتيت الفرقة ما لا يبلغ وصفه حزناً على إخواني ،
وما رأيت من مفارقتهم لنا ونقضهم علينا مانحن فيه من الألفة والمودة ،
فأتيت إلى منزلي ، وظللت عامة ليلي أدير عيني على الغمض فلا
أقدر على ذلك فبينما أنا كذلك بين النائم واليقظان إذ أنا بهاتف يهتف
بي وهو يقول :

يا خائضاً في غمرة الجهل وحائداً عن واضح السبيل
لست على شيء فلا تكذبني في راجع التوبة في مهل
من قبل يوم معظم هائل يُشيب رأسَ المرضع للطفل
فلما سمعت ذلك استيقظت وماعني شيء من عقلي ، فهذا والله
يا إخوتي ما رأيت .

فلما سمع القوم ذلك عجبوا وجعل بعضهم يقول لبعض : كيف
حتى خُصَّ محمد بن زرعة ويعقوب بن عبد الكريم بهؤلاء الهوائف
من بيتنا ؟ هذا سيكون لنا نبأ .

قال : ثم أقبل سعيد بن إسماعيل الأسدي على محمد بن زرعة

(١) في الأصل الفرقة .

وهو يقول :

لولا الذي أضمرت من غدرٍ مارأعكَ الهاتف إذ يهتف
خُصصتَ بالهاتف من بيننا مالك في قولك لاتنصف
والله رب العرش يا إخوتي فإنني مجتهداً أحلف
لاخنت من أهوى ولاشتمته جهراً ولا مثلي به يوصف
قال : ثم أنشأ هارون بن الحصين التميمي هو يقول :

أبالأحلام أسلو عن هواي لأقوام أتوا بالترهات
أتونا يزعمون بأن آتٍ أتى بنصيحة عند البيات
يحضُّهم على هجر وغدر وقطع الحبل منا والشتات
فمن يك راغبا عن وصلٍ إلفٍ فلست براغب حتى الممات

قال : وتفرق القوم أيضاً ليلتهم تلك وقد وفق الله عز وجل
للتوبة خمسة نفر ابني عمرو وبشر بن مطر الأزدي ومحمد بن زرعة
الأزدي ويعقوب بن عبد الكريم الأنصاري ، وبقي منهم خمسة :
هارون بن الحصين وأحمد بن الحصين وعبد الله بن عمرو الطائي
وسعيد بن إسماعيل الأسدي وأحمد بن محمد الشكري (١) .

وهكذا رأينا مثالا من المعركة الدائرة بين العقول السليمة وهي
تنادي أصحابها بالعودة إلى طريق الهداية ، وبين العواطف المتأججة
وهي تنادي بالبقاء على طريق الغواية ، حيث بات اثنان من هؤلاء
السفينة بشر ليلة من القلق والأرق ، حتى من الله تعالى عليهما بمن

(١) الفتوح لابن أعثم ١٢٧/٧ - ١٣٠ .

أنقذهما من حيرتهما ، وحسم تلك المعركة لصالح العقول السليمة .
ولاريب أن البقية - وإن أظهروا بشيء من التعصب بقاءهم على
غوايتهم - يعانون من هذه المعركة ، ولكن لم يكن حان وقت
هدايتهم وانتصار عقولهم السليمة على عواطفهم المنحرفة .
ولم ييأس هؤلاء الذين تابوا من هداية أصحابهم ، بل ظلوا
يدعون الله تعالى لهم ويحاولون معهم ذلك بشيء من الجهد المنظم ،
حيث تولى كل واحد منهم الكتابة لواحد من أولئك إلى أن هداهم
الله تعالى .

يقول عيسى بن دآب : وجعل هؤلاء الخمسة الذين قد تابوا
يدعون الله ويتضرعون في أن يرجع^(١) بقلوب إخوانهم إلى ما هم
عليه من التوبة ، فلم يزالوا كذلك إلى أن استجاب الله منهم دعاءهم
في إخوانهم وأقبل بقلوبهم إلى طاعته .
قال : وكتب هارون بن الحصين إلى يحيى بن عمرو القرشي
بهذين البيتين :

نفسى الفداء لمن جلّى الإله به عنّا العمى ووقاه مورد التلف
قد كان ما بيننا في الدين مختلفا فالיום نحن جميعا غير مختلف
قال : ثم كتب أخوه محمد بن الحصين إلى سليمان بن عمرو
أيضاً بهذين البيتين :

أتسني منك موعظة يقوم نصحبها أودي
فجئتك تائباً في اليو م خوفاً من عقاب غد

(١) في الاصل يراجع .

قال : ثم كتب أحمد بن محمد الشكري إلى محمد بن زرعة
العبدى بهذين البيتين :

لقد قرأت كتاباً منك هيّجني يدعو إلى الله إسراراً وإعلاناً
أجبتّه ودعوت الله مجتهداً كيما^(١) نكون على الخيرات أعواناً

قال : ثم كتب سعيد بن إسماعيل الأسدي إلى يعقوب بن
عبدالكريم الأنصاري بهذين البيتين :

أتاني كتاب منك فيه مواعظ تحضُّ على خير وتدعو إلى رشد
فأبصرت مافيه من الحق والهدى وفارقت من أهوى على أجهد الجهد
فلما وصلت هذه الأبيات من هؤلاء الخمسة إلى إخوانهم فرحوا
لذلك واستبشروا ، واشتدَّ سرورهم ، ثم إنهم ابتهلوا إلى الله عز
وجل في أن يُقَوِّيَ عزمهم على ما عزموا عليه من التوبة ، فاستجاب
الله لهم ذلك .

قال : ثم إنهم تواعدوا أن يجتمعوا في مشربة لهم فيكلم بعضهم
بعضاً ، فاجتمعوا في مشربتهم تلك ، قال : وهي مشربة معروفة
بالمدينة يقال لها مشربة التوبة ، وهي مشربة على العطارين بالمدينة ،
قال : فلما اجتمعوا هنالك [تعانقوا] ^(٢) وبكى بعضهم إلى بعض
لطول الفرقة وما كانوا عليه من التباعد ، وحمدوا الله تعالى على
ما ألَّفَ بينهم من التقوى وسألوه التوفيق والعصمة مما هم فيه .

(١) في الأصل كما

(٢) في الأصل اعتنقوا .

وهكذا تمت توبة هؤلاء الخمسة ، واجتمع شمل الفتية العشرة على الهدى وطاعة الله تعالى ، بعدما كانوا يجتمعون على الضلال ومعصية الله جل وعلا .

ولقد كان أولئك الخمسة الأوائل أوفياء لإخوانهم ، حكماء في دعوتهم حيث قاطعوا مجالس اللهو ، وظلوا على صلة بإخوانهم الذين مازالوا في غوايتهم عن طريق المكاتب الفردية .

ولاشك أن الإنسان حينما يخلو لنفسه ، ثم يتلقى في تلك الحال كتابا يخاطب عقله ، ويدعوه إلى رشده ، فإن النفس تكون أكثر ميلا إلى الهدى وقبولا لنداء الحق ، ذلك لأن العاطفة آنذاك تكون خامدة ، وليس لدى الإنسان ما يُثير كَوَامن النفس في اتباع الهوى ، لبعده عن مجالس اللهو ورفقة السوء ، فينفرد العقل بتدبير النفس ، فإذا كان لدى الإنسان بقية من إيمان وقابلية لسلوك طريق الخير فإن العقل يقود النفس إلى رشدّها .

وكم للرسائل الخاصة في تاريخ الدعوة من أثر بالغ ، ونتائج مثمرة في مجال الهداية والالتزام بالطريق المستقيم !

وهل كان إسلام بطل الإسلام خالد بن الوليد إلا من أثر كتاب بعثه إليه أخوه الوليد ، يذكر فيه إشادة النبي ﷺ به ورغبته في إسلامه ؟ ثم لانسى دعاء أولئك الشباب الخمسة لإخوانهم في ظهر الغيب ، حيث كان بعضهم يوصي بعضا بالدعاء لهم بالهداية .

ولاشك أن وضعهم وهم يحترقون أسى على إخوانهم إذا تصوروا الجنة وحرمان إخوانهم من نفح نعيمها وتصوروا النار وتعرضهم للفح

جحيماً . . لاشك أن قلوبهم والحال هذه ستكون حاضرة مع الله تعالى بكل مداركها وتصوراتها ، والله سبحانه وتعالى كريم رحيم ، لا يرد دعوة صادقة صادرة من قلب متلهف عظيم الرجاء قوي الأمل بعطفه وكرمه .

أولست قلوب العباد بيد الرحمن جل جلاله يصرفها كيف يشاء؟ ثم أليس الدعاء الصادق سببا في تحويل القلوب من الغواية إلى الهداية؟ إن الدعاء الخالص وسيلة اتصال عظمى تقطع حجب الليل البهيم وتجاوز طبقات الفضاء العالية لتصل إلى مدبر الكون جل جلاله فيكون بهذا الدعاء هداية الحيارى ، ونصر المظلومين ، وكشف الكربات ، وغير ذلك من صنوف القضاء، المترتبة على الدعاء .

فهذا الخبر نموذج صالح للدعوة إلى الله تعالى، ويشتمل على فوائد جلية :

منها أن من كمال الهداية أن يسعى المهتدي لإنقاذ أصحابه الذين كان معهم لأن أمر هدايتهم متعين عليه، حيث إنه أعرف الناس بحالهم، وأقدر الناس على مخاطبتهم والتأثير عليهم .

ومنها أن المهتدي عليه أن لا ينظر إلى الذين مازالوا على الغواية نظرة استعلاء واستخفاف ، بل عليه أن ينظر إليهم نظرة رحمة وعطف، وأن يحاول إنقاذهم من الهلاك الذي وجَّهوا أنفسهم نحوه .

ومنها أن لا يكتفي الداعية بمحاولة واحدة في هذا المجال، بل عليه أن يكرر المحاولات ، وأن ينوع الأساليب التي يستخدمها في سبيل الوصول إلى هدفه السامي .

هذا وبعد اجتماع أولئك الفتية على الهدى وجههم رائدهم يحيى ابن عمرو القرشي إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، وخرجوا إلى الشام استجابة لنداء أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الذي أمر بجمع الجيوش من بلاد الإسلام لغزو الروم كما سبق .

ووصل هؤلاء الفتية إلى جيش المسلمين المرابط بمرج دابق بقيادة مسلمة بن عبد الملك .

ولما سار الجيش الإسلامي لجهاد الروم سار معهم هؤلاء الفتية ، وشاركوا في معركة طُوانة التي تم بعدها فتح هذه المدينة ، وقد ذُكر من أخبار هؤلاء الفتية أنهم كانوا في مقدمة من برز لأبطال الروم ، وقد جاء بالتفصيل ذكر ماجرى من بعضهم كما جاء في رواية عيسى بن دأب حيث قال عن جهاد أحمد بن الحصين التميمي :

ثم حمل على العليج - يعني الرومي - فضربه ضربة على فخذه فقطعها فسقط العليج ميتا ، قال : وإذا بعلج آخر يقال له بولص قد بدر إلى أحمد بن الحصين ، قال : فنظر إليه أحمد فقصد نحوه وهو يقول :

دونك حرباً لاتقيه تُرسي صبراً على المكروه مني نفسي

كيما أنال منزلاً في القدس فإئماً الدنيا كيوم أمس

قال : واختلفا بطعتين ، طعنه العليج في خاصرته فجندله قتيلاً - رحمه الله - .

قال : فلما قُتل هارون بن الحصين (١) ، وأخوه أحمد خرج من

(١) يعني التميمي وهذا دليل على أنه استشهد قبل أخيه أحمد .

بعدهما سعيد بن إسماعيل الأسدي نحو ذلك العليج وهو يقول :

يابولص الروم إليك نفسي قد طال في ظلّ الخطايا حسبي
اليوم أحمى إختوتي بالحمسي كيما يكون بطن سبع رمسي^(١)
قال : والتقيا بضربتين ، ضربه الأسدي ضربة جندله قتيلا .
قال : وخرج من بعده عليج آخر يقال له قسطنطين الأصغر ، قال :
فقصده الأسدي وهو يقول :

ياأيها الداعي إلى الجلال في حومة الأبطال والأنجاد
أتاك ليث سلس القياد ذو صولة يكرها الأعداي
ثم تطاعنا برمحيهما فلم يصنعا شيئا ، وتضاربا بسيفيهما فلم
يصنعا شيئا ، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه حتى سقطا عن فرسيهما
إلى الأرض ، فشد عليه العليج بخنجر كان معه فوجأه في نحره فقتله
- رحمه الله - .

قال : وخرج من بعده يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري نحو
قسطنطين هذا العليج وهو يقول :

لَتَذْهَبَنَّ الْيَوْمَ نَفْسِي أَسْفَا إِذْ كُنْتُ بَعْدَ خَمْسَةِ مَخْلَفًا^(٢)
قَدْ نَلْتُ مِنْ لَذَّةِ عَيْشِي مَا صَفَا حَسْبِي الَّذِي عَانَيْتُ حَسْبِي وَكَفَى

(١) يعني أحميهم بالقوة لأستشهد فيكون جسدي في بطون السباع .
(٢) هذا يدل على أنه قد استشهد خمسة من هؤلاء الفتية ، وقد ذكر منهم هارون بن
الحصين التميمي وأخوه أحمد وسعيد بن إسماعيل الأسدي وهذا يدل على سبق
استشهاد يحيى بن عمرو القرشي وأخيه سليمان .

ثم حمل الأنصاري على قسطنطين العليج فقتله ، ثم وقف ودعا إلى البراز فلم يخرج إليه أحد ، وكاعت الروم بعد قتل قسطنطين .

قال : وجعل مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين يتعجبون من إقدام هؤلاء الفتية على الموت ، وصبرهم على الحرب ، وكل واحد منهم يتلو صاحبه .

قال : والتفت بشر بن مطر الأزدي إلى إخوته الذين بقوا معه : يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري ، وأحمد بن محمد اليشكري ، ومحمد بن زرعة العبدي ، فقال : يا إخوتي إنه قتل منا خمسة ومضوا لسبيلهم ، ونحن ههنا أربعة ، ونرجوا أن نلحق بهم عن قريب إن شاء الله (١) ، ولكن هل ترون ما أرى ؟ فقالوا : وماترى يرحمك الله ؟ فقال : ويحكم إني رفعت رأسي إلى السماء أنظر إلى هذه الغمامة التي قد أظلت هذا العسكر فرأيت عجبا عجيبا ، وذلك أنني رأيت رجالا لم أر مثلهم ولا مثل صورتهم ساعة قط ، ومعهم خيام بيض لم أر على حسنهما شيئا ، ونظرت إلى نسوة يطلعن علينا من هذه الغمامة ويضحكن إلى إخواننا هؤلاء الذين قُتلوا ، فهذا ما رأيت .

قال : فعند ذلك اقشعرت جلود القوم ، ووقفت شعورهم واشتاقوا إلى ماشوقهم إليه صاحبهم بشر بن مطر الأزدي ، ثم غلبتهم أعينهم بالبكاء والترحم على إخوانهم ، وجعل بعضهم يقول لبعض :

(١) يقصد بالخمس يحيى وسليمان ابني عمرو القرشي وهارون وأحمد ابني الحصين التميمي وسعيد بن إسماعيل الأسدي ، وبقي العاشر لم يذكر وهو عبد الله بن عمرو الطائي فلعله مات قبل المعركة .

إنه يجب علينا الآن أن لانقصر في جهاد هؤلاء القوم الكفار، فعسى الله أن يجمعنا مع إخواننا في مستقر رحمته .

قال : فكان أول من تقدم منهم إلى الحرب يومئذ بشر بن مطر الأزدي ، وهو الذي رأى مارأى ، فجعل يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها :

من كان في شك وفي تعامي فقد رأيت الحور في الخيام
صبراً لهذا يابني الكرام حتى تحلوا ساحة السلام

قال : ثم تقدم محمد بن زرعة العبدي وهو يقول :

إن كان لابد مصيري للفنا فما مقامي بعد خمس ههنا
إن نلت ماأبغي فقد نلت المنى جنات عدن ليس فيها من عنا

قال : ثم تقدم أحمد بن محمد الشكري وجعل يرتجز ويقول :

لاخير في العيشة بعد صحبي حسبي من العيشة حسبي حسبي
لاأرجع اليوم وأقضي نحبي ثم أحل في جنان ربي

قال : ثم حمل هؤلاء الفتية فقاتلوا قتالا شديداً ، وجعل يعقوب ابن عبد الكريم الأنصاري يرتجز ويقول :

هيهات مني سفهي وطيشي أقصد للحصن أمام جيشي

قد ذهب السادة من قريش^(١) لاخير لي من بعدهم في العيش

قال : ثم حمل يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري حملة يريد باب الحصن قال: ولحقه إخوته الثلاثة حتى صاروا إلى باب حصن طوانة،

(١) يعني بذلك يحيى وسليمان ابني عمرو القرشي .

فجعلوا يقاتلون أشد القتال ، قال : وصاح مسلمة بالمسلمين فحملوا ،
وانكشفت الروم من بين أيديهم كشفة قبيحة .

قال : وجعل قوم يقاتلون ، وقوم ينقبون السور نقبا واسعا ،
وبادر يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري فدخل الحصن من ذلك النقب
وجعل يقاتل أهل الحصن وحده ، فلم يزل كذلك حتى قطعت إحدى
قدميه ، ووثب قائما على تلك الحالة يقاتلهم على فرد قدم وهو يقول :
أضرب بالسيف على فردٍ قَدَمٍ والحرُّ لا يجزع من وقع الأَلمِ
والموت بعد الإلف أشفى للقرم مع الذي أرجوه من باري النَّسمِ
أرجو جنانا حققت كل النعم مع فتية كانوا لعمرى كالبهم^(١)
في مجمع الحرب إذا الحرب اضطرم خوفا من الله العزيز ذي النُّقمِ
قال : فلم يزل الأنصاري يقاتلهم وحده ويدفعهم عن ذلك حتى
دخل إليه إخوته الثلاثة ، فأعانوه ودفعوا الروم عن ذلك النقب ، ثم
إنهم كبروا وصاحوا بأصحاب مسلمة ، فدخل الناس من ذلك النقب
وفتحوا باب الحصن ، والأنصاري ينزف الدم من رجليه حتى مات
رحمه الله وقُتل الثلاثة الذين كانوا معه - رحمة الله عليهم
أجمعين^(٢) .

وهكذا ضرب هؤلاء الفتية المدنيون أمثلة رائعة في الشجاعة

(١) يعني أنهم كانوا صغارا ، شبههم بصغار الغنم .

(٢) الفتح لابن أعثم ١٢٥/٧ - ١٣٤ ط دار الكتب العلمية ، و ٦٥/٣ ط دار
الفكر .

والإقدام والتضحية ، فشاركوا في المباراة التي هي أخطر أنواع الحرب ، وكل واحد منهم يتعرض للشهادة ويتمناها ، ولما ظفر بها بعضهم قصد الباقون مواقع الخطر ليلحقوا بإخوانهم ، فكانوا أول من دخل في ذلك النقب الذي يُفْضي إلى داخل حصن الروم ، والغالب على من يقتحم ذلك المضيق أنه يُقتل لأن الأعداء يكونون قد أعدوا العدة له ، فظفر هؤلاء الفتية بالشهادة جميعا بعدما أثنوا في الروم وفتحوا الطريق للمسلمين ليدخلوا من ذلك النقب .

وتمَّ فتح مدينة « طوانة » وكان لهؤلاء الفتية مشاركة فعالة في ذلك الفتح ، وطُوي ذكْرهم في الدنيا ولكن فُتحت لهم صفحة جديدة في الآخرة ، حيث انضموا إلى قافلة الشهداء ، فتجددت لهم الحياة الخالدة بعدما فقدوا الحياة الفانية ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] .



فتح عمورية :

لما انتهى المسلمون من فتح طوانة سار مسلمة بن عبد الملك بالجيش الإسلامي إلى عمورية، وبلغ ذلك أميرها « شمعون » فوجه إلى المسلمين قائداً من قاداته يقال له « ورسيب » ومعه أربعون ألفاً، وأقبل شمعون من ورائه ومعه ثمانون ألفاً ، وبلغ ذلك مسلمة فوجه قائده البطال بن عمرو في مقدمته ومعه عشرة آلاف بكامل تجهيزهم، فالتقى بمقدمة جيش الروم ، واقتتلوا ، وأسرع القتل في المشركين، وحمل « ورسيب » على البطال وهو لا يعلمه، وعلم البطال أنه ورسيب فضربه على رأسه فقدّ البيضة والهامة وخر ورسيب قتيلاً وانهزم جيشه .

وعلم بذلك شمعون فزحف بخيله ورجله يريد لقاء المسلمين وأرسل البطال بن عمرو إلى مسلمة فخبّره بذلك، فأقبل مسلمة بجماعة المسلمين ، فالتقوا بأعدائهم واقتتلوا قتالاً شديداً، وترجّل مسلمة فنزل عن فرسه ونزل الناس معه ، وصاح صائح المسلمين: أيها الأمير البشري فقد قتل الله شمعون ، فكبرّ مسلمة وكبر المسلمون معه، وإذا بالبطال قد أقبل وفي يده رأس شمعون حتى ألقاه بين يدي مسلمة .

فعند ذلك وثب مسلمة واستوى على فرسه واستوى الناس معه على خيولهم ، ثم حمل وحمل الناس معه ، وانهزم الروم وولوا الأدبار، وأسرع المسلمون إلى باب عمورية فدخلوها بالسيف عنوة، فقتلوا مقاتلتها وغنموا أمتعتها وأموالها .

وكان للمسلمين أشعار حماسية في تلك المعركة منها قول
عبدالرحمن بن صعصعة بن صوحان العبدي :

أنا ابن عبد القيس جدِّي صعصعة بنحو البأس والإقدام عند المعمة
إذا التقى الأبطال وسط المعمة والروم قد سارت إلينا مجمعة
ومن يخاف الله فاللهُ معه

ومنها قول عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي :

أنا ابن ذي الفضل فتى بجيله جرير شيخي وله فضيله
فضيلة عظيمة جليله من النبيُّ صاحب الوسيله (١)

وفي هتين المعركتين أظهر المسلمون بسالة عالية وثبتوا لأعدائهم
ثباتاً عظيماً ، فقد انتصرت مقدمة جيش المسلمين المكونة من عشرة
آلاف بقيادة البطل بن عمرو على مقدمة جيش الروم المكونة من
أربعين ألف مقاتل بقيادة ورسيب ، وكان للبطل بن عمرو الأنطاكي
أثر كبير في المعركتين حيث قتل قائد المقدمة ورسيب وقائد جيش الروم
أمير عمورية شمعون ، ومعلوم أن قتل قادة العدو يوقع الفشل في
صفوفهم ويقودهم إلى الهزيمة كما تقدم لنا أمثلة لذلك .

* * *

(١) الفتح لابن أعثم ١٣٥/٧ - ١٣٦ .

فتح نقفورية :

ثم سار مسلمة بن عبد الملك من عمورية يريد مدينة نقفورية فلما أشرف المسلمون عليها إذا هم بنقفور الأكبر قد خرج إليهم في زهاء سبعين ألف فارس سوى الرجال ، فلما نظر إلى جيش المسلمين صاح بأصحابه : أن احملوا ، وحمل معه أصحابه ، فانكشف المسلمون أمامهم وقتل منهم جماعة ، فنادى مسلمة في أصحابه بأعلى صوته : يا أهل الشام لاشام لكم ، ويا أهل العراق لاعراق لكم ، ويا أهل مصر لامصر لكم ، إن أنتم وليتم الأدبار ، اليوم يعلم الله منكم حسن الصبر واليقين .

ونادى محمد بن مروان وقال : يا أهل الإسلام أما تستحيون أن ينهزم أهل الدين والقرآن من بين أيدي الكفرة وعبدة الصليبان ! أما ترغبون فيما رغبتكم فيه ربكم وأتاكم به نبيكم [من] النصر ، والله ينصركم ويثبت أقدامكم .

فعند ذلك صدقت عزائم المسلمين وتراجعوا إلى الروم ، والتحم القتال ، وحمل نقفور على مسلمة بن عبد الملك فضربه ضربة على بيضته [والبيضة ما يلبس على الرأس من الحديد للوقاية] فنكسه إلى الأرض ، ثم صاح بالروم فحملوا على المسلمين حملة كادوا أن يزيلوهم عن مواقعهم غير أنهم ثبتوا للروم وأشرعوا الرماح في وجوههم ، ورشقوهم بالسهم ، ورجعت الروم إلى ورائها ، ووثب مسلمة فاستوى على فرسه ثم نادى بأعلى صوته : أيها الناس إليّ إليّ ، أنا مسلمة بن عبد الملك : يوجب الله لكم الرضوان ، فاجتمع

عليه الناس ثم تواصلوا بالصبر، ووعظ بعضهم بعضاً، وحملوا على الروم كحملة رجل واحد ووضعوا فيهم السيوف، وكان نقفور أول قتيل .

وعلمت الروم بمقتل نقفور فولّوا الأدبار والسيوف يأخذهم حتى صارت القتلى بينهم كالتلؤلؤ بعضهم على بعض .

وسبق البطل بن عمرو وجماعة من المسلمين إلى باب مدينة نقفور، فهجموا على أهلها فقتلوا من قدروا عليه ، وأقبل مسلمة في جماعة من المسلمين حتى أحاطوا بالمدينة فاجتمعوا عليها ، وغنموا مافيها (١)

وبعد : فهذه معركة كبرى من معارك المسلمين التي خاضوها ضد الروم ، وقد كاد المسلمون فيها يتعرضون للإبادة مرتين ، لأنهم لو انهزموا انهزما كلياً فلن يبقى منهم أحد حيث لاحصون لهم إلا ظهور الخيل .

وإن أبرز مواقف هذه المعركة قوة المسلمين الفائقة في الصبر واحتمال الشدائد ، وسرعة الإفاقة بعد الصدمة الهائلة المباغته، ففي تراجعهم الأول أمام هجوم الأعداء الصاعق ناداهم القائد مسلمة بن عبد الملك وذكرهم بأن مسئولية بقاء بلاد الإسلام بيد المسلمين معلقة بأعناق ذلك الجيش لأن الروم لن يكتفوا بهزيمة ذلك الجيش المنتخب بل سيتقدمون لاستعادة الشام وغيرها ، وهذه لفظة جيدة حيث اعتبرهم حماة المسلمين وحراس دولة الإسلام ، فعظّم في نفوسهم

(١) الفتوح لابن أعثم ١٣٧/٧ - ١٣٨ .

الشعور بالمسئولية ، وانطلقوا في هجومهم على الأعداء بطاقتهم الكاملة ، كما ذكرهم محمد بن مروان بما وعده الله تعالى لعباده المجاهدين في سبيله من النصر والتمكين ، فكان لذلك أثره في ربطهم بالله تعالى واستمدادهم النصر منه جل وعلا .

ومن دلائل ثبات المسلمين وإخلاصهم لدينهم أنهم لم يتزعزعوا لما سقط قائدهم على الأرض ، بل ثبتوا لهجوم الروم حتى ردوهم على أدبارهم ، وهذا مثل لإدراك المسئولية وحسن التصرف عند المفاجآت . وفي قيام مسلمة بعد ذلك وإعلانه عن موقعه ونداء المسلمين إليه دلالة على شجاعته حيث إن هذا الإعلان والنداء سيلفت أنظار الأعداء إليه .



فتح السماوة الكبرى :

وقد استمر المسلمون في سيرهم وفتوحاتهم وتوغلوا في بلاد الروم ، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن أعثم الكوفي : وسار المسلمون نحو مدينة « السماوة الكبرى » وبها يومئذ بطريق من البطارقة الرومية يقال له « إفريطون » في ثمانين ألفا من الروم ، وقد حصن السماوة قبل ذلك ، ونصب على سورها عشرين منجنيقا وثلاثين عرادة (١) ، قال : فنزل مسلمة والمسلمون على السماوة ، ثم أمر بجانيقه فنُصبت عليها من كل جانب وتراعى الفريقان رميا متداركا ، ودامت الحرب بينهم أربعين يوما لا يفترون عن ذلك ليلا ولأنهارا .

فلما كان بعد ذلك أقبل بطريق من بطارقة الروم يقال له : « قرطس » إلى مسلمة بن عبد الملك حتى وقف بين يديه في جوف الليل فكفر له (٢) وقال : أيها الأمير إن السماوة حصن حصين ، وفيها خلق كثير ، وليس يتهاى لك أن تفتحها إلا أن يفتح لك من داخلها فتدخلها ، وإن إفريطون هذا صاحب السماوة قد أساء إليّ ، وغصبني على ابنة لي فأخذها مني قهرا ، وقد عزمتم على أن أفتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك ، فإذا أصبحت فعبئ أصحابك ، واقترّب من باب المدينة ، والحق الحرب بينك وبين الروم ، وقدم أبطال عسكرك بين يديك فإني فاتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك .

قال : فقال له مسلمة : إن أنت فعلت ذلك حملتك وكسوتك وبررتك بعشرين ألف درهم وخلطتك بأصحابي .

(١) هي نوع من آلات الرمي أصغر من المنجنيق .

(٢) يعني وضع يده على صدره وطأ رأسه تعظيما على عاداتهم .

قال : فقال له قرطس : أيها الأمير إذا دخلت المدينة فافعل من ذلك ما أحببت ، قال : ثم رجع قرطس إلى المدينة .

فلما كان من غد عبيّ مسلمة أصحابه كما كان يعيهم قبل ذلك ، ثم دنا من باب المدينة - وهي السماوة - وبين يديه البطال بن عمرو في فرسان من أصحابه ، قال : ثم عَطَعَتِ الروم^(١) ، وكَبَّرَ المسلمون فاختلط الفريقان ، واشتبكت الحرب على باب المدينة ، وفتح ذلك البطريق الباب ، واقتحم المسلمون معه ، فجعلوا يقتلون ويأسرون .

قال : وفتح أفريطون باباً آخر من أبواب السماوة وخرج هارباً على وجهه ومعه خلق كثير من أصحابه حتى صار إلى مدينة من مدن الروم يقال لها المسيحية^(٢) .

وبعد : فإن في هذا الخبر مثلاً من استعداد المسلمين الجيد، وذلك من ناحية إعداد القوة لقتال الأعداء بما يتناسب مع عصرهم، حيث كانوا يحملون معهم عدداً من المجانيق التي تعادل المدافع في العصر الحاضر ، وقد كان عددها وافراً حيث أحاطوا بها على المدينة المحاصرة، وهكذا يجب على المسلمين أن يطبقوا قول الله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾^(٣) ليكونوا في ذلك

(١) يعني نادوا بالحرب على طريقتهم .

(٢) الفتوح لابن أعثم ١٣٩/٧ - ١٤٠ .

(٣) سورة الأنفال / ٦٠ .

على الأقل مثل أعدائهم ، إلى جانب مايتفوقون به على جميع الأمم من السلاح المعنوي .

وفي هذا الخبر مثل حيّ لأثر العدل ومكارم الأخلاق في كسب القلوب والظفر بولائها ونصرتها ، بغضّ النظر عن العوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة ، والتي أبرزها الاتفاق في الدين ، ثم الاتفاق في اللغة والوطن والروابط الدنيوية .

كما أن فيه مثلاً حياً لأثر الظلم ومساوئ الأخلاق في نفرة القلوب وميلها إلى الانتقام ، والتشفي من الظالمين ، بالرغم من الاتفاق في العوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة .

فهذا القائد الرومي الذي كان من عظماء ذلك البلد والذي أعلن ولاءه للمسلمين واستعداده لنصرتهم ، ثم قام بتنفيذ ذلك حسب اتفاه مع المسلمين ، إنما دفعه إلى ذلك اعتباران : الأول أنه تعرض للظلم وانتهاك العرض على يد أمير تلك المدينة ، فنفر منه وتربص الفرصة المناسبة للانتقام منه ، ولاشك أن النفوس الأبية تتحمل كثيراً من أنواع الظلم ولكنها لا تتحمل انتهاك أعراضها .

والاعتبار الثاني : ملاحظة ماشتهر به المسلمون من العدل ومكارم الأخلاق ، حيث كانت أخبارهم الطيبة في ذلك تسبقهم إلى كل مكان يريدون فتحه ، فتكون نفوس الشعوب مهياة لقبول حكم المسلمين والاستنصار بهم على الظلمة الجبارين .

فلو كان المسلمون المحاصرون لتلك المدينة من جملة الأمم التي تريد الهيمنة على الأرض لبسط جيروتها وظلمها لَمَا كان هناك فرق

بينها وبين ذلك الجبار المسيطر على تلك المدينة ، وإذا فتحملُ جيروت
القريب أولى من تحمل جيروت البعيد ، ولكن لما سبقت أخبار المسلمين
وسيرتهم الحميدة في فتوحاتهم كان ذلك مشجعا لكل من مال إلى
تقدير مكارم الأخلاق أو تعرض لظلم من طغاة قومه وجباريهم إلى أن
ينحاز إلى صف المسلمين وأن يُظهر نصرتهم .

وفي هذه الحادثة عبرة لأصحاب المسئولية ، كي لا يستهينوا بمن
تحت ولايتهم ، وأن لا يغتروا بما في أيديهم من القوة والسلطان ، فإن
النفوس الأبية تصبر على الضيم مادامت تحت الغلبة والهيمنة ، فإذا
لاحت لها فرصة للتشفي والانتقام سارعت إلى اغتنامها ، وهذا
الشعور سائد في عموم البشر ، ولكن المسلمين خاصة يتقيدون في كل
تصرفاتهم بشرع الله تعالى ، حيث يغلبون جانب المصالح العامة على
المصلحة الخاصة ، ويراعون جانب الإبقاء على دولة الإسلام والحفاظ
على عزة المسلمين .

هذا وإن مأسخره الله تعالى في هذه المعركة من خروج ذلك
الرومي الذي أبدى استعداداه لنصرة المسلمين يعتبر مثالا من أمثلة تأييد
الله تعالى لأوليائه المؤمنين لما كانوا أهلا لذلك ، ولما يريد الله سبحانه
بهم من إعزاز الإسلام ، فقد كانت تلك المدينة من المناعة بحيث
يصعب على المسلمين فتحها من خارجها فقيض الله للمسلمين من
يفتحها لهم من الداخل بدون تدبير منهم .

* * *

فتح مدينة المسيحية :

قال ابن أعثم الكوفي : واقترب المسلمون من المسيحية ، وبلغ ذلك إفريطون صاحب السماوة ، فنادى في جميع النصرانية فاجتمعوا إليه ، فخرج بهم من المسيحية ، وبين يديه بطريق يقال له : شمس في ثلاثين ألفا ، وإفريطون من ورائه في أربعين ألفا .

قال : فدنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالا شديداً وحملت الروم بأجمعها على عساكر المسلمين حملة فهزموهم حتى ألحقوهم بالسماوة ، وقد قُتل منهم جماعة ، ثم رجع المسلمون عليهم فهزموهم حتى ألحقوهم بالمسيحية ، واشتبكت الحرب على باب المسيحية .

قال : وجعل « شماس » البطريق يحمل على المسلمين حملة بعد حملة فيقتل ويرجع إلى أصحابه ، حتى قتل نفرا من المسلمين .

قال : وحملت قبيلة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المؤمنين ، وتقدم إفريطون صاحب السماوة في جمهور بطارقة الروم ، فجعل يكافئ المسلمين .

قال : وقصده محمد بن عبد العزيز [يعني بن مروان] على فرس له أصدى^(١) وهو يرتجز ويقول :

قد علم الروم ومن والها	وكسل عالج أقلف ساواها
أنِّي إذا الحرب خبَّتْ لظاها	ألقيتُ أخرها على أولها

(١) يطلق الصَّدَى على لطافة الجسم .

قال : واختلفا بطعتين ، طعنه إفريطون طعنة فقتله ، قال : فاغتم المسلمون لقتل محمد بن عبد العزيز غمًا شديدًا ، وتقدم البطال بن عمرو حتى وقف حذاء إفريطون وهو يقول :

لأبد من عرض ومن مقام على ملك صمدٍ منعم
فجاهدي يانفس لأتلامي بكل عَضْبَ ذَكَرٍ حسام

ثم حمل البطال على إفريطون ، والتقى بطعتين ، طعنه البطال طعنة جدله قتيلا ، ثم نزل فاحتز رأسه ورفع على رمحه ، ثم كبر وكبر المسلمون معه .

قال : ونظرت الروم إلى رأس إفريطون وقد رفع فانكسروا لذلك انكسارا ، وألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب ، فولّوا الأدبار وكبستهم خيل المسلمين ، وأخذتهم السيوف ، فقتل منهم خلق كثير وانهزم الباقون على وجوههم ، وسلّموا مدينة المسيحية بجميع ما فيها . فدخلها المسلمون عنوة فقتلوا من قتلوا ، واحتوا على غنائمها (١) .

هذا وإن في هذه المعركة ثلاثة مواقف نعلق عليها بإيجاز :

الموقف الأول في مقدرة المسلمين الحربية التي تمثلت في سرعة عودتهم إلى القتال بعد الانهزام ، وهذا يدل على أن ما حصل لهم إصابة مؤقتة بسبب حرب مفاجئة لم يعدوا لها أو بسبب تقصير في تطبيق بعض عوامل النصر ، ثم عادوا بعدها أقوى مما كانوا ، ودحروا قوة أعدائهم .

(١) الفتح لابن أعم ٧/ ١٤٠ - ١٤١ .

والثاني موقف محمد بن عبد العزيز بن مروان لما أقدم على مبارزة ذلك الرومي الشجاع ، وإن محط الإعجاب في ذلك ليس في مجرد المبارزة ، وإنما هو في كون أبناء الأمراء آنذاك ينافسون غيرهم في خوض غمار أقصى مراحل الحرب ، ويغامرون بأنفسهم في موقف يكونون فيه أقرب إلى الموت ، وهذا دليل على علو التربية الجهادية التي كان الأمراء آنذاك يأخذون بها أبناءهم .

أما الموقف الثالث فهو في شجاعة البطل بن عمرو وإقدامه على مبارزة ذلك الرومي الذي قضى قبله على صاحبه محمد بن عبدالعزيز ، وإن مظاهر الشجاعة تبدو في هذا الموقف في مقدرته على الاحتفاظ بمعنويته وإقدامه ، مع ما شاهده من مصرع صاحبه ، وعدم تهيبه من ارتفاع معنوية ذلك الرومي بسبب ما أحرز من نصر . ثم إن عظمة هذا البطل المقدام تبدو في سرعة استحضاره لعظمة الله تعالى في ذلك الموقف ، وما سيُقدم عليه هو وغيره من العرض على الله تعالى والوقوف بين يديه للحساب ، وإن هذا الذكر القلبي واللساني يعطي المجاهد أقوى دفعة من الطاقة والثبات وتجاوز الأحوال ، وبهذه المعنوية العالية التي اكتسبها من ذكر الله تعالى استطاع أن يقضي على مبارزه العنيف في أسرع وقت .



فتح مدينة « بدروق » :

ذكر ابن أعثم أن المسلمين قضوا فصل الشتاء في مدينة « المسيحية » ثم زحفوا منها إلى « بدروق » فلما علم بذلك أميرها « لبوس » استنجد بملك الروم فأمدّه بخمسين ألفاً إضافة إلى جيشه البالغ ثلاثين ألفاً .

ولما دنا منهم المسلمون كبروا ثلاث تكبيرات فامتلات قلوب الكفار رعباً وخوفاً ، وتقدم قائدهم « لبوس » أمام جيشه ، فنظر إليه البطال ابن عمرو وقد انبرى من بين أصحابه ، فاستأذن مسلمة بن عبد الملك في الخروج إليه فقال له مسلمة : أذنت لك ولكن انظر أين تضع رمحك ، فقال البطال بن عمرو : كُفِّتَ أيها الأمير ، ليس مثلي يحتاج إلى الوصية في مثل هذا الوقت .

ثم جعل البطال بن عمرو يرتجز ويقول :

قل للأمير ذي الصيَال مسلمة	وابن الكرام السادة المكرمة
ومُقعصي الأبطال يوم الملحمة	إني أنا البطال جدي علقمة
كم ساعدٍ وبيضةٍ وجمجمة	طرحتها عند هياج الغممة
وأُسمرَ رويته من غلصمة	وأنت محمود بكل مكرمة

ثم رفع رأسه وخرج من الصف ، فجال جولة ثم حمل على قلب الروم ، وأمكنته الفرصة من « لبوس » فحمل عليه فضربه بسيفه ضربة فلق تاجه وهامته فخر قتيلاً ، وانهزم الروم بغير قتال ، فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وفرّ الباقيون على وجوههم

لايعرّجون على شيء حتى لحقوا ببحر القسطنطينية واقتحم المسلمون
مدينة بدروق فاحتوا غنائمها وكانت كثيرة .

ثم انشأ البطال بن عمرو يقول :

لقد علم الروم الأراجس أننا قتلنا لدى الهيجاء منها رئيسها
تركنا لبوسا في القتام مجدلاً فقبّح ربي ذو الجلال لبوسها
ونحن أبدنا في العجاج كُماَتهم ونحن هزمنّا جيشها وخميسها
ونحن إذا ما الحرب شبت وأرهجت

نخوض لظاها عنوة ووطيسها
ونحن قسمنا فيثها ونساءها
وكان لبوسٌ كهفها وعمادها
وكان لعمرى ليثها وهموسها
وكانت له الأبطال تسطو لأنه إذا ناب أمر لم تجده حسيّتها
وسوف نُكرُ الخيل فينا شواربها عَنّا جيجَ تبدي في الغبار جسيّتها
نريد بها «أليون» كيما نثيره

ونشفي لدى الحرب العوان نفوسها^(١)

وهكذا عمل البطال كما كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يصنع
حينما كان يختطف قادة الأعداء فتنهزم جيوشهم في الحال، فكم
أنجبت الأمة الإسلامية من أبطال عظماء كفوا جيوشهم كثيراً من
المواجهات القتالية وأحرزوا النصر العظيم لأمتهم .

(١) الفتوح لابن أعمش بتصرف ١٤١/٧ - ١٤٣ .

- جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك -

محاصرة القسطنطينية :

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث بشر بن سحيم رضي الله عنه : أنه سمع النبي ﷺ يقول : لتفتحنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش .

قال : فدعاني مسلمة بن عبد الملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية^(١).

وقد ذكر الحافظ الذهبي خبر حصار القسطنطينية من رواية سعيد ابن عبد العزيز قال : أخبرني من أدرك ذلك أن سليمان بن عبد الملك همّ بالإقامة ببيت المقدس ، وجمع الناس والأموال بها ، وقدم عليه موسى بن نصير من المغرب ، ومسلمة بن عبد الملك ، فيئما هو على ذلك إذ جاءه الخبر أن الروم خرجت على ساحل حمص فسبّت جماعة فيهم امرأة لها ذكر ، فغضب وقال : ما هو إلا هذا ، نغزوهم ويغزوننا ، والله لأغزونهم غزوة أفتح فيها القسطنطينية أو أموت دون ذلك . ثم التفت إلى مسلمة وموسى بن نصير فقال : أشيروا عليّ . فقال موسى : يا أمير المؤمنين ، إن أردت ذلك فسر سيرة المسلمين فيما فتحوه من الشام ومصر إلى إفريقية ، ومن العراق إلى خراسان ، كلما فتحوا مدينة اتخذوها داراً وحازوها للإسلام ، فابدأ بالدروب فافتح ما فيها من الحصون والمطامير والمسالح ، حتى تبلغ القسطنطينية وقد هُدّمت حصونها وأوهيت قوتها ، فإنهم سيعطون بأيديهم . فالتفت إلى

(١) مسند أحمد ٤ / ٣٣٥ .

مسلمة فقال : ماتقول؟ قال : هذا الرأي إن طال عُمرٌ إليه أو كان الذي يأتي على رأيك ولا ينقضه رأيتُ أن تعمل منه ما عملت ولا يأتي على ما قال خمس عشرة سنة ، ولكنني أرى أن تُغزِي جماعةً من المسلمين في البرِّ والبحر القُسطنطينية فيحاصرونها ، فإنَّهم مادام عليهم البلاء أعطوا الجزية أو فتحوها عَنوةً ، ومتى ما يكون ذلك فإنَّ مادونها من الحصون بيدك . فقال سليمان : هذا الرأي . فأغزى جماعة أهل الشام والجزيرة في البرِّ في نحو عشرين ومائة ألف ، وأغزى أهل مصر وإفريقية في البحر في ألف مركب ، عليهم عمر بن هُبيرة الفَزَارِيُّ ، وعلى الكل مسلمة بن عبد الملك .

قال الوليد بن مسلم : فأخبرني غيرُ واحد أن سليمان أخرج لهم الأعطية ، وأعلمهم أنَّه عزم على غزو القسطنطينية والإقامة عليها : فاقدروا لذلك قدره ، ثم قدم دمشق فصلَّى بنا الجمعة ، ثم عاد إلى المنبر فكلَّم الناس ، وأخبرهم بيمينه التي حلف عليها من حصار القسطنطينية : فانفروا على بركة الله تعالى ، وعليكم بتقوى الله ثم الصبر ، وسار حتى نزل دابقًا ، فاجتمع إليه الناس ، ورحل مسلمة .

قال الذهبي : وأما مسلمة فسار بالجيوش ، وأخذ معه إليون الرومي المرعشي ليدله على الطريق والحوار ، وأخذ عهوده وموائيقه على المناصحة والوفاء ، إلى أن عبروا الخليج وحاصروا القسطنطينية ، إلى أن برَّح بهم الحصار ، وعرض أهلها الفدية على مسلمة ، فأبى أن يفتحها إلا عنة ، قالوا : فابعث إلينا إليون فإنه رجل منا ويفهم كلامنا مشافهةً ، فبعثه إليهم ، فسألوه عن وجه الحيلة ، فقال : إن

ملَّكتموني عليكم لم أفتحها لمسلمة، فملكوه ، فخرج وقال لمسلمة :
قد أجابوني أنهم يفتحونها ، غير أنهم لا يفتحونها ما لم تُنَحَّ عنهم ،
قال : أخشى غدرك ، فحلف له أن يدفع إليه كلَّ ما فيها من ذهب
وفضة وديباج وسبي ، وانتقل عنها مسلمة ، فدخل إليون فلبس التاج ،
وقعد على السرير ، وأمر بنقل الطعام والعلوفات من خارج ، فملأوا
الأهراء^(١) وشحنوا المطامير ، وبلغ الخبر مسلمة ، ففكر راجعاً ، فأدرك
شيئاً من الطعام ، فغلَّقوا الأبواب دونه ، وبعث إلى إليون يناشده وفاء
العهد ، فأرسل إليه إليون يقول : مُلِّك الروم لا يسايح بالوفاء ، ونزل
مسلمة بفنائهم ثلاثين شهراً ، حتى أكل الناس في العسكر الميتة ،
وقُتِل خلق ، ثم ترحل^(٢) .

هذا وقد تبين لنا من هذه الأخبار أن أمير المؤمنين سليمان بن
عبد الملك قد فزع من وصول الروم في غزوهم إلى وسط الشام ،
فاستشار القائدين الكبيرين موسى بن نصير ومسلمة بن عبد الملك في
غزو الروم وفتح القسطنطينية ، فكان رأي موسى بن نصير عدم التوجه
إلى القسطنطينية أولاً ، وإنما تفتح بلاد الروم شيئاً فشيئاً فكلما فتح
المسلمون مدينة نزل بها طائفة منهم واتخذوها داراً ، فإذا بلغ المسلمون
عاصمة ملك الروم كانوا قد ضعفوا فيسهل فتحها ، وقد وافقه مسلمة
على أن هذا هو الرأي ، لكنه أبان بأن هذا الغزو سيستمر خمس
عشرة سنة وأن لجاحه لا يتم إلا إذا طال عمر أمير المؤمنين حتى ذلك

(١) جمع هُرَي وهو بيت كبير يجمع فيه الطعام .

(٢) تاريخ الإسلام / حوادث ٨١-١٠٠ ص ٢٦٩ - ٢٧١ ، وانظر تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٠

والكامل لابن الأثير ٤/ ١٤٦ .

التاريخ أو كان من يأتي بعده على هذا الرأي ، ولما كان يعلم أن ذلك لن يتم لحرص سليمان بن عبد الملك على الإسراع في فتح القسطنطينية فإنه قد أشار برأي آخر وهو غزو تلك المدينة بجيش مكثف من البر و البحر ، وقد وافق سليمان على هذا الرأي بالرغم من كونه مخالفا لأراء أهل الخبرة الحربية .

ولقد كان الرأي الذي أدلى به موسى بن نصير هو العمل الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في كل فتوحاتهم ، فلذلك نجحوا في القضاء على المدائن عاصمة الفرس ، وبدؤوا طريقهم للقضاء على القسطنطينية عاصمة الروم بفتح الشام كله وتحويله إلى بلاد إسلامية .

ولقد بذل المسلمون جهودا عظيمة في هذه الغزوة حتى بلغوا القسطنطينية وأثخنوا في الروم وكادوا أن يفتحوا عاصمة بلادهم لولا نفاق المؤن التي كانت معهم كما جاء في هذا الخبر ، ولو أنهم وصلوا إلى تلك المدينة بعدما فتحوا ما قبلها من بلاد الروم وحولوها إلى بلاد إسلامية لكان أمر تموين الجيش بالغذاء سهلا ميسورا .

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في خطر وضع الثقة بالأعداء وإن عاشوا فترة طويلة مع المسلمين ، لأنهم لن يعاملوا قومهم بالخيانة ويعاملوا المسلمين بالوفاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وإنما قد يستكينون للمسلمين ويدهنونهم ماداموا تحت قبضتهم ، فإذا ملكوا أمرهم بدت عداوتهم في أعنف صورها .

وفي هذا الحصار يقول الحافظ ابن كثير : وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة ، وجاع المسلمون عندها جوعا

شديداً، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام ، فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعا كبيراً بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعا ومنارة ، فهو بها إلى الآن يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة .

قال : وبالجملية كانت لمسلمة مواقف مشهورة ومساع مشكورة وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصونا وقلاعاً ، وأحيا بعزمه قصورا وبقاعاً ، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه في كثرة مغازيه وكثرة فتوحه وقوة عزمه وشدة بأسه ، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه (١) .

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣٤١ - ٣٤٢ .

- جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك -

مازال المسلمون في جهاد مع الروم ، ومن أبرز معاركهم معهم ماجرى في عهد أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك في سنة اثنتين وعشرين ومائة حيث بعث جيشاً بقيادة ابنه سليمان بن هشام وكان أمير العساكر المرابطين هناك مالك بن شبيب وكان معه بطل المسلمين في ذلك الزمن عبد الله البطال ، فجاء الخبر إلى البطال بأن ملك الروم « إليون » قد خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس ، فأخبر بذلك مالك بن شبيب وقال له : المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، فأبى عليه ذلك ، ودهمهم الجيش ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، والأبطال تحوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوء باسمه خوفاً عليه من الروم فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلظاً منه ، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوه من سرجه برماحهم فألقيوه إلى الأرض ، ورأى الناس يقتلون ويأسرون وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب ، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها .

وأصبح إليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق فقال له : ما هذا يا أبا يحيى ؟ فقال : هكذا تُقتل الأبطال ، فاستدعى إليون بالأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله ، فقال له إليون : هل من حاجة يا أبا يحيى ؟ قال : نعم ، تأمر من معك من

المسلمين أن يَلُوا غسلي والصلاة علي ودفني ، ففعل الملك ذلك ، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى (١) .

وهكذا ختم الله تعالى حياة هذا البطل بالشهادة التي كان يدعو الله جل وعلا بالتوفيق إليها بعدما أثخن في الأعداء ودوخهم وأرعبهم عقوداً من الزمن ، فما أعظم تلك الحياة الحافلة بالجهاد ومواجهة الأهوال والمخاطر ! وما أسمى تلك النهاية التي ختمت بها تلك الحياة !!

وقد كان ملك الروم « إليون » يعرفه جيداً لأن « إليون » كان مع المسلمين ، وخرج معهم إلى حصار القسطنطينية ، ثم خدعهم كما سبق ، وملَّكه الروم عليهم ، والظاهر أن حرصه على علاج البطل وبقائه حياً من أجل أن يأخذه أسيراً فيساوم به قادة المسلمين لكون البطل من عظماء المسلمين وأبطالهم .

وقد كانت لهذا البطل مواقف جهادية عالية مرت علينا في عرض مواقف المعارك الماضية ، وكان له - بعد الله تعالى - فضل في انتصار المسلمين أكثر من مرة .

وبالرغم من شهرته وقوة أثره في حروب أهل الشام فإن المصادر التاريخية قد اختلفت في اسمه واسم أبيه وكنيته ، فبينما نجد في كتاب الفتوح لابن أعثم أن اسمه البطل بن عمرو ، نجد الحافظ ابن كثير يذكر اسمه عبد الله البطل ويذكر كنيته مرة أبا محمد ومرة أبا يحيى (٢) واتفق معه ابن الأثير في تسميته عبد الله البطل ولكنه ذكر أن

(١) البداية والنهاية ٣٤٥/٩ .

(٢) البداية والنهاية ٣١٧/٩ ، ٣٤٥ .

كنيته أبو الحسين ، واتفقا على نسبته إلى أنطاكيه لأنه كان قد نزلها (١)
وذكره الإمام ابن تيمية في مناسبة بيان من نُسجت حولهم الأساطير
لشهرتهم بالشجاعة وذكر اسمه عبد الله البطل وذكر أن كنيته أبو
محمد (٢).

ولعل له ابنا اسمه يحيى وآخر اسمه محمد وثالثا اسمه الحسين
فمرة يكنى يحيى ومرة بمحمد ومرة بالحسين ، ولكنه قد اشتهر في
الحروب باسم البطل سواء عند المسلمين أو عند الروم .

أما جيش المسلمين فإن بعضهم قتلوا وبعضهم أسروا ولجأ بعضهم
إلى المدينة التي حولهم فتحصنوا فيها ، وقد انطلق إليهم « إليون »
بجيشه فحاصرهم ، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البرد
بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، ففرَّ إليون بجيشه إلى
القسطنطينية فتحصن بها (٣) .

* * *

(١) الكامل ٢٤٨/٤ .

(٢) فتاوى ابن تيمية ٣٥٢/١٨ .

(٣) البداية والنهاية ٣٤٧/٩ .

الجهاد مع الروم

فى

عهد العباسيين

حينما قامت دولة بني العباس عام اثنين وثلاثين ومائة سُـغِلَ خلفاؤها بالحروب الداخلية ، ولم تستقر إلا في أواخر عهد المنصور الخليفة الثاني ، فلم يكن هناك جهاد إلا في عهد الخليفة الثالث المهدي ، حيث بدأ الجهاد مع الروم .

ثم استمر الجهاد بعد ذلك مع الأعداء بنسبة قليلة متباعدة ، وأغلبه جهاد الدفاع عن دار الإسلام .

وقد كان الجهاد في العهد العباسي موجهًا ضد ست من الأمم : الروم ، وأهل المشرق وأهل الهند ، والصليبيين ، والتتار ، ونصارى الأندلس .

وكان الجهاد في العصر العباسي الأول موجهًا من الخلفاء أنفسهم ، وذلك إلى نهاية عهد المعتصم ، ثم أصبح موجهًا من الدويلات التي استقلت بشئون حكمها مع بقاء تبعيتها للدولة العباسية . وإن كان بعضها قد استقلت تمامًا كالدولة الأموية بالأندلس وماتلاها من دويلات .

علما بأن الدولة العباسية قد انتهت من بغداد في عام ستة وخمسين وستمائة عندما اجتاحتها التتار ، ولكنها عادت في عام ثمانية وخمسين في مصر حينما بايع الظاهر بيبرس أحد بني العباس بالخلافة كما سيأتي ، غير أنها ظلت خلافة بالاسم وكان الحكم بيد المماليك إلى أن قضى العثمانيون على المماليك فانتهى وجود الخلافة العباسية .

وما زال القتال دائراً بين دولة الإسلام ودولة الروم منذ عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، إلى أن زالت بلاد الشام ومصر عن الروم في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، ثم زال شمال أفريقية عنهم في عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وفي عهد بني أمية ، ودخلت كل هذه البلاد في دولة الإسلام ، ولكن الحروب ظلت بين الروم والمسلمين من جهة بلاد الشام ، وكان إنشاء هذه الحروب غالباً من المسلمين ، ولكن دولة الروم كلما آتست من دولة الإسلام ضعفاً أغارت جيوشها على أطراف بلاد المسلمين .

١ - جهاد الروم في عهد المهدي والرشد -

غزو القسطنطينية :

قام أمير المؤمنين هارون الرشيد بغزو بلاد الروم في عهد أبيه المهدي وبعد توليه الخلافة ، فالغزوة الأولى وجهه فيها أبوه الخليفة المهدي ، وفي ذلك يقول الإمام الطبري : ووجهه أبوه - فيما ذكر يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة (١) غازيا إلى بلاد الروم ، وضم إليه الربيع مولاة ، فوغل هارون في بلاد الروم ، ولقيته خيول « نقيطاً » قومس القوامسة ، فبارزه يزيد بن يزيد (٢) ، فأرجل يزيد ، ثم سقط « نقيطاً » فضربه يزيد حتى أثخنه ، وانهزمت الروم ، وغلب يزيد على عسكرهم .

قال : وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي عليه القسطنطينية ، وصاحب الروم يومئذ « أغسطه » امرأة أليون ، وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها ، فجرت بينها وبين هارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية ، فقبل ذلك منها هارون ، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له ، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق (٣) في طريقه ، وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفاً على المسلمين ، فأجابته إلى ما سأل .

(١) يعني من سنة خمس وستين ومائة .

(٢) هو يزيد بن يزيد بن زائدة الشيباني أمير أرمينية وأذربيجان وكان من الشجعان المشهورين .

(٣) أي المشتعلة على ما يحتاجه المسافرون .

قال : وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وسلّمت الأسارى^(١).

في هذا الخبر مواقف جهادية عالية، منها موقف يزيد بن مزيد الشيباني حينما بارز قائد الروم « نقيطا » فقتله ، وكان ذلك سببا في انهزام جيشه ، وهكذا كان جهد هذا القائد الشجاع يزيد بن مزيد مغنيا عن جهود كبيرة سيبدلها المسلمون في مقاومة الروم لو ظلوا على إقدامهم ومعنوياتهم الأولى ، ولكن حينما تحطمت معنوياتهم بقتل قائدهم سهّل على المسلمين هزيمتهم .

ومن المواقف الجهادية العالية وصول المسلمين بقيادة هارون الرشيد إلى القسطنطينية ، وهذا يعتبر مغامرة جريئة لبعد ذلك المكان عن دار الخلافة ، وقد وصلها المسلمون قبل ذلك عدة مرات أهمها وأعظمها وصولهم إليها أول مرة في خلافة معاوية رضي الله عنه بقيادة ابنه يزيد كما تقدم .

فتح هرقل الأول :

أما جهاد هارون الرشيد في بلاد الروم في خلافته فقد تكرر عدة مرات أبرزها ما ذكره الإمام ابن جرير الطبري بقوله : فذكر أن نقفور لما ملك واستوسقت له الروم بالطاعة^(٢) كتب إلى الرشيد :

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُّخّ وأقامت نفسها مقام البيدق^(٣) ،

(١) تاريخ الطبري ١٥٢/٨ - ١٥٣ باختصار .

(٢) أي ثبت طاعة الروم له .

(٣) هذا تعبير عن ظهورها أمام الرشيد بمظهر الضعف .

فحملت إليك من أموالها ماكنت حقيقا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ماحصل قبلك من أموالها، واقتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك .

قال : فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ماتراه دون أن تسمعه، والسلام .

ثم شَخَّص من يومه وسار حتى أناخ بباب « هرقله » ففتح وغنم، واصطفى وأفاد ، وخَرَّب وحرَّق واصْطَلَم^(١) ، فطلب نقفور المودعة على خراج يؤديه في كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرقَّة نقض نقفور العهد وخان الميثاق ، وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعه إليه ، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه، فما تهيأ لأحد إخباره بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكَرَّة في مثل تلك الأيام .

وذكر أنهم احتالوا عليه بإنشاد الشعر المتضمن ذلك، ومنه قول الحجاج بن يوسف التيمي :

نقضَ الذي أعطيته نقفور	وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه	غنم أتاك به الإله كبير
فلقد تابشرت الرعيه أن أتى	بالنقض عنه وافد وبشير

(١) أي استأصل .

ورجّتُ يمينك أن تعجّل غزوة تشفى النفوس مكانها مذكور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى عنك الإمام لجأهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مُفلت هبّلتك أمك ماظنتت غرور

ثم ذكر أن هارون الرشيد لما سمع هذا الشعر قال : أَوْقَدُ فعل
نقفور ذلك ! وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك ، فكرّ راجعاً في
أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه ، فلم يبرح حتى رضي وبلغ
ماأراد (١) .

ففي هذا الخبر مواقف عالية لأمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه
الله تعالى ، حيث أظهر عزة الإسلام ودولته لما استهان بذلك ملك
الروم ، فكان جوابه بالفعل لا بالقول حيث غزاه بذلك الجيش العظيم
الذي خلع فؤاد ذلك الملك فعاد ذليلاً يطلب ود هارون الرشيد
والصلح معه .

وحينما نقض ذلك الملك الصلح وخان العهد لاستبعاده أن يعود
إليه المسلمون في الشتاء ، وعلم بذلك الرشيد فعاد إليه بجيشه رغم
قسوة البرد وشدة المؤونة ، حتى لقّنه درساً لا ينساه وأخضعه لما يريد .

ولقد كان غزو الروم في الشتاء مشقةً كبيرة ومخاطرة عظيمة على
المسلمين ، ولكن هارون الرشيد أراد أن يعلم الروم أن باستطاعة
المسلمين أن يصلوا إليهم في أي فصل من الفصول ، وأن غزوهم
بلادهم في الصيف إنما كان باختيارهم لكونه أيسر لهم .

*

*

*

(١) تاريخ الطبري ٣٠٧/٨ - ٣١٠ باختصار .

فتح هرقله الثاني وماحولها :

ذكر ذلك الإمام محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة تسعين ومائة، فقال: وفيها فتح الرشيد هرقله، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم، وكان دَخَلَهَا - فيما قيل - في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق، سوى الاتباع وسوى المطوعة وسوى من لاديوان له، وأناخ عبد الله بن مالك على ذي الكلاع ووجه داود بن عيسى بن موسى سائحًا في أرض الروم في سبعين ألفًا، وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودُبْسَة، وافتتح يزيد بن مخلد الصقفصاف وملقوبية - وكان فتح الرشيد هرقله في شوال - وأخربها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يومًا عليها، وولّى حميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر، فبلغ حميد قبرص، فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفًا، فأقدمهم الرافقة، فتولّى بيعهم أبو البختری القاضي، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار .

وكان شخوص هارون إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب، واتخذ قلنسوة مكتوبًا عليها « غار حاجٌ » ، فكان يلبسها، فقال أبو المعالي الكلابي :

فَمَنْ يَطْلُبُ لِقَاءَكَ أَوْ يُرَدُّه فَبِالْحَرَمَيْنِ أَوْ أَقْصَى الشُّغُورِ
فَفِي أَرْضِ الْعَدُوِّ عَلَى طِمْرٍ وَفِي أَرْضِ التَّرَفِّهِ فَوْقَ كُورِ
وَمَاحَا زَ الشُّغُورِ سِوَاكَ خَلَقَ مِنْ الْمُتَخَلِّفِينَ عَلَى الْأُمُورِ

ثم صار الرشيد إلى الطوانة، فعسكر بها، ثم رحل عنها، وخلف عليها عقبة بن جعفر، وأمره ببناء منزل هنالك، وبعث نفقور

إلى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه وولىّ عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار، منها عن رأسه أربعة دنانير، وعن رأس ابنه استبراق دينارين. وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقله كتاباً نسخته :

لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم . سلام عليكم ، أما بعد أيها الملك ، فإنّ لي إليك حاجة لاتضرّك في دينك ولادنياك ، هينة يسيرة ، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقله ، كنت قد خطبْتُها على ابني ، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

واستهداه أيضاً طيباً وسرادقا من سرادقائه ، فأمر الرشيد بطلب الجارية ، فأحضرت وريئت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه ، وسلّمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور ، وبعث إليه بما سأل من العطر ، وبعث إليه من التمور والأخضصة والزبيب والترياق ، فسَلَّم ذلك كله إلى رسول الرشيد ، فأعطاه نقفور وقر دراهم إسلامية على برذون كُميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ، ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بُزْيُون^(١) ، واثنى عشر باريّاً ، وأربعة أكلب من كلاب الصيد ، وثلاثة براذين . وكان نقفور اشترط ألا يخرب ذا الكلاع ولا صمله ولا حصن سنان ، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقله ، وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار^(٢) .

(١) البزْيُون : ضرب من نسيج البز أو من رقيق الديباج ، مركب من : «بز» ومن : «يون» ،

أي يشبه البز . وانظر الألفاظ الفارسية لأدي شير ٢٢ - هامش تاريخ الطبري .

(٢) تاريخ الطبري ٨ / ٣٢٠ - ٣٢٢ .

في هذا الخبر مثل من عزة المسلمين وقوة دولة الإسلام في عهد
أمير المؤمنين هارون الرشيد، حيث كان ملك الروم يدفع الجزية
والخراج لدولة الإسلام وهو صاغر، ويتذلل له بالكتاب الذي بعثه إليه
ليهبه امرأة من السبي، وإنما علا شأن المسلمين وقويت دولتهم
لمحافظتهم على الجهاد في سبيل الله تعالى ، فقد كان الرشيد يغزو
سنة ويحج أخرى ، وإذا كان هذا هو الغزو الذي يقوم به بنفسه
فكيف بالبعوث التي يبعثها مع قاداته ؟!

٢ - جهاد الروم في عهد المعتصم -

كان سبب ذلك أن ملك الروم « توفيل بن ميخائيل » لما بلغه أن جيوش المسلمين ذهبت إلى أذربيجان وماحولها لغزو « بابك الخرمي » غزا بجيشه أطراف دولة الإسلام فهجم على « زبطرة » وقتل رجالها وسبى الذراري والنساء ثم أحرقها .

وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح .

فلما انتهى الخبر إلى المعتصم صاح في قصره : النفير ، ثم ركب دابته وأخذ استعداد الحرب ، ولما لم يتهيا له الخروج في ذلك اليوم حتى تتم تعبئة الجيش جلس في دار العامة ، ووجه عجيف بن عنبسة وعمراً الفرغاني ومحمد كوته وجماعةً من القواد إلى « زبطرة » إعانة لأهلها ، فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده ، فوقفوا قليلاً حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا .

وبلغ المعتصم أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم : وامعتصماه ، فأجابها وهو جالس على سريره : لبيك لبيك ، وأمر بتجهيز جيش كبير لغزو الروم ، وسأل : أي بلاد الروم أ منع وأحصن ؟ ف قيل : عمورية ، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام ، وهي عين النصرانية وبُنْكُها ^(١) وهي أشرف عندهم من القسطنطينية ^(٢) .

(١) البنك بضم الباء أصل الشيء وخالصة .

(٢) تاريخ الطبري ٥٦/٩ - ٥٧ ، الكامل لابن الأثير ٢٤٧/٥ ، تاريخ ابن خلدون ٣/٢٦٢ .

وذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين المعتصم جهز جيشاً لم يتهاى
لخليفة قبله مثله من اكتمال السلاح والعُدَد .

قال : ولما دخل بلاد الروم أقام على نهر اللّمس وهو على
سلوقية قريبا من البحر بينه وبين طرسوس مسيرة يوم ، وعليه يكون
الفداء إذا فُودي بين المسلمين والروم .

وقد قسم المعتصم جيشه ثلاثة أقسام : قسماً بقيادة الأفشين ،
وقسماً بقيادة أشناس وقسماً قاده بنفسه ، وقد أمر الأفشين بالتقدم ثم
أمر أشناس بالسير بعده ، ثم تبعهم ببقية الجيش ، وقد جعل الموعد
بينهم مدينة « أنقرة » .

أما ملك الروم فإنه بلغه خبر خروج الجيش الإسلامي فأقبل
بجيشه يريد مواجهة جيش المسلمين ، فلما كان قريبا من أولهم علم
بأن جيشا للمسلمين كبيرا قد جار من طريق آخر وهو جيش الأفشين ،
فأخذ ملك الروم بعض جيشه لمواجهة جيش الأفشين وأبقى بعض
الجيش بقيادة أحد أقاربه ليلاقى طليعة جيش المسلمين القادم من ذلك
الطريق .

وقد التقى ملك الروم بجيش الأفشين فانهزم مشاة الجيش
الإسلامي وقُتل منهم كثير ولكن فرسان المسلمين كروا على جيش
الروم فهزموه وشتتوه ، وانحاز ملك الروم مع قلة من جنده حتى
استطاع الوصول إلى مقر جيشه فإذا بهم قد اختلفوا على قائده وتفرقوا
عنه فقتل ذلك القائد ، ورجع نحو القسطنطينية ليجمع فلول جيشه .

وقد علم أشناس بذلك بواسطة بعض الأسرى الذين أسرهم

فأرسل إلى المعتصم يخبره ففرح بذلك ، وألْتَقَتْ جيوش المسلمين حول أنقرة ، وكان أهل هذا البلد قد أخلَوْه وهربوا (١) .

وبعد ففي هذا الخبر مواقف ، منها موقف العزة والشهامة والشجاعة من أمير المؤمنين المعتصم حينما دعا بالنفير إلى الجهاد لما بلغه مصاب المسلمين على يد الروم ، ولقد بلغ به الحماس للجهاد والانتصار للمسلمين إلى حد أنه ركب دابته وأخذ سلاحه حال سماعه الخبر .

ومن الُطف مواقفه وأروعها إجابته نداء تلك المرأة المسلمة الأسيرة التي نادته باسمه ليخلصها من أسر الروم ، وفي بيان هذه النخوة والشهامة يقول الشاعر عمر أبو ريشة رحمه الله تعالى :

رُبَّ وَاْمَعْتَصِمَاهُ انْطَلَقَتْ مِلءَ أَفْوَاهِ الصَّبَايَا الْيَتَمِ
لَا مَسْتَ أَسْمَاعَهُمْ لَكِنَهَا لَمْ تَلَامَسْ نَخْوَةَ الْمُعْتَصِمِ

ومما يذكر للمعتصم أنه أسرع في تجهيز جيش لنجدة المسلمين المنكوبين وصد الأعداء عنهم ، ثم بدأ في إعداد جيش كثيف لتأديب الأعداء والانتقام منهم .

وإن نهوض المعتصم بذلك الجيش يعتبر إظهاراً لعزة الإسلام وقوة دولته ، وردعاً قويا لأعداء الإسلام حتى لا يتجرؤوا مرة أخرى على الإغارة على أطراف بلاد المسلمين .

ومن المواقف المذكورة في هذا الخبر موقف المسلمين من أبناء

(١) تاريخ الطبري ٥٧/٩ - ٦٢ .

المناطق المجاورة لمدينة « زبطره » حيث هبَّ جميع الذين يملكون الأسلحة والدواب لنجدة إخوانهم الذين داهمهم العدو ، وهذا فهم منهم لفرضية الجهاد وتعيَّنه على من داهمهم العدو ومن حولهم ممن تقوم بهم الكفاية ، وقد استطاعوا دحر العدو ووقف تقدمه نحو بلاد الإسلام حتى اضطر إلى التراجع إلى بلاده ، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان لدى المسلمين آنذاك ، حيث لم يعتبر أهل كل بلد مصالح بلدهم خاصة ، وإنما اعتبروا العُدوان على بلد إسلامي عدوانا عليهم جميعاً ، وبهذا الشعور الحي العام يشعر الأعداء أن كل بلد إسلامي موصول بالبلدان الإسلامية الأخرى وأنه ليس بإمكان العدو التوغل في بلاد الإسلام اعتماداً على بُعد عاصمته وجيشه .

ومن المواقف الرائعة في هذا الخبر مقدرة فرسان المسلمين الفائقة في جزء من الجيش الإسلامي على هزيمة معظم جيش الروم ، الذي كان بقيادة ملكهم ، وهذا يُلَقِّنهم درساً بليغاً ، لأنه لو حصل اللقاء مع جيش المسلمين الكامل فإن النتيجة ستكون إبادة جيش الروم ، ولهذا لم يفكر ملك الروم بالعودة لفك الحصار عن « عمورية » التي تعتبر من أعظم مدنها .

فتح مدينة عمورية :

أما فتح « عمورية » من بلاد الروم ، فقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري أن المسلمين وصلوا إليها وحاصروها ، وكان لها سور حصين وراءه نفق ، فتحصن أهلها داخلها قال : وكان رجل من المسلمين قد أسره أهل عمورية فتنصَّر وتزوج فيهم فحبس نفسه عند دخولهم

الحصن^(١) فلما رأى أمير المؤمنين ظهر وصار إلى المسلمين ، وجاء إلى المعتصم وأعلمه أن موضعا من المدينة حمل الوادي عليه من مطر جاءهم شديد ، فحمل الماء عليه فوق السور من ذلك الموضع فكتب ملك الروم إلى عامل عمورية أن يبني ذلك الموضع فتوانى في بنائه حتى كان خروج الملك من القسطنطينية إلى بعض المواضع ، فتخوف الوالي أن يمر الملك على تلك الناحية فيمر بالسور فلا يراه بُني ، فوجه خلف الصنّاع فبنى وجه السور بالحجارة حجرا حجرا ، وصير وراءه من جانب المدينة حشوا ، ثم عقد فوقه الشرف كما كان ، فوقف ذلك الرجل المعتصم على هذه الناحية التي وصف ، فأمر المعتصم فضرب مضربه في ذلك الموضع ، ونصب المجانيق على ذلك البناء ، فانفجر السور من ذلك الموضع ، فلما رأى أهل عمورية انفراج السور علّقوا عليه الخشب الكبار كل واحدة بلزق الأخرى ، فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسر فعلقوا خشبا غيره وصيروا فوق الخشب البراذع ليترسوا السور .

فلما ألحّت المجانيق على ذلك الموضع انصدع السور فكتب ياطس والخصي^(٢) إلى ملك الروم كتابا يعلمانه أمر السور ، ووجهها الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلّام عربي وأخرجاهما من الفصيل ، فعبرا الخندق ووقعا إلى ناحية أبناء الملوك المضمومين إلى عمرو الفرغاني ، فلما خرجا من الخندق أنكروهما فسألوهما : من أين أنتما ؟ قالا

(١) يعني لم يتصرف عند دخول فلول المنهزمين من الروم إلى عمورية والتحصن بها .

(٢) هما من قادة الروم وكانا دخلا عمورية بعد المعركة التي انهزم فيها الروم .

لهم : نحن من أصحابكم ، قالوا : من أصحاب من أنتم ؟ فلم يعرفا أحداً من قواد أهل العسكر يسميانه لهم ، ، فأنكروهما وجاؤوا بهما إلى عمرو الفرغاني بن أرنجا ، فوجه بهما عمرو إلى أشناس فوجه بهما أشناس إلى المعتصم ، فساءلهما المعتصم وفتشهما فوجد معهما كتابا من ياطس إلى ملك الروم يعلمه فيه أن العسكر قد أحاط بالمدينة في جمع كثير ، وقد ضاق بهم الموضع ، وقد كان دخوله ذلك الموضع خطأ ، وأنه قد اعتزم على أن يركب ويحمل خاصة أصحابه على الدواب التي في الحصن ، ويفتح الأبواب ليلاً غفلةً ، ويخرج فيحمل على العسكر كائنا فيه ماكان ، أفلت فيه من أفلت وأصيب فيه من أصيب ، حتى يتخلص من الحصار ويصير إلى الملك .

فلما قرأ المعتصم الكتاب أمر للرجل الذي يتكلم منهما العربية والغلام الذي معه ببكرة (١) ، فأسلما وخلع عليهما ، وأمر بهما حين طلعت الشمس فأداروهما حول عمورية ، فقالا : ياطس يكون في هذا البرج ، فأمر بهما فوقفا بحذاء البرج الذي فيه ياطس طويلاً ، وبين أيديهما رجلان يحملان لهما الدراهم وعليهما الخُلْع ، ومعهما الكتاب ، حتى فهمها ياطس وجميع الروم وشتموهما من فوق السور ، ثم أمر بهما المعتصم فنحوهما .

وأمر المعتصم أن تكون الحراسة بينهم نواب ، في كل ليلة يحضرها الفرسان يبيتون على دوابهم بالسلاح وهم وقوف عليها ، لئلاً يُفتح الباب ليلاً فيخرج من عمورية إنسان ، فلم يزل الناس يبيتون

(١) البكرة كيس توضع فيه الدراهم والدنانير .

كذلك نواب على ظهور الدواب في السلاح ودوابهم بسروجها ، حتى انهدم السور مابين بُرجين من الموضع الذي وُصف للمعتصم أنه لم يُحكَم عمله . . إلى أن قال :

فلما كان من الغد قاتلهم على الثلثة ، وكان أول من بدأ بالحرب أشناس وأصحابه ، وكان الموضع ضيقا ، فلم يكنهم الحرب فيه ، فأمر المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرقة حول السور فجمع بعضها إلى بعض ، وصيروها حول الثلثة وأمر أن يُرمى ذلك الموضع ، وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه فأجادوا الحرب وتقدموا .

فلما كان اليوم الثالث كانت الحرب على أصحاب أمير المؤمنين خاصة ، ومعهم المغاربة والأتراك ، والقيّم بذلك « إيتاخ » فقاتلوا فأحسنوا واتسع لهم الموضع المثلم ، فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت في الروم الجراحات .

ثم ذكر أن الحرب بالنسبة للروم اقتصرت على القائد المتأخم لتلك الثلثة وجيشه ، وأنه طلب من بقية قادة الروم الذين اقتسموا حراسة البروج حول المدينة أن يشاركوا في القتال وإلا ذهبت منهم المدينة فأبوا وقالوا : قد سلم السور من ناحيتنا وليس نسألك أن تمهدنا فشأنك وناحيتك ، فعزم هذا القائد وهو أصحابه على الاستسلام للمسلمين .

فلما أصبح هذا القائد وهو « وندو » خرج فتفاوض مع أمير المؤمنين على التسليم مقابل الأمان على الذرية والمتاع والسلاح ،

فدخل المسلمون من تلك الناحية واستولوا على جميع ما في عمورية^(١).

وهكذا تم فتح مدينة « عمورية » التي تعتبر من أعظم مدن الروم وأشدّها تحصيناً ، وكان من أسباب تعجيل الفتح ما قام به ذلك الرجل المسلم الذي تنصر ظاهراً لما وقع أسيراً في يد الروم ، وذلك حينما دل المسلمين على نقطة الضعف في سور المدينة ، وهذا موقف يذكر لهذا الرجل فإن الخروج من تلك المدينة المحصنة بغير توجيه من قادتها يعتبر أمراً في غاية الصعوبة والخطورة ، وقد خاطر هذا الرجل بحياته من أجل أن يدل المسلمين على مفتاح دخول تلك المدينة المحصنة .

ومما يذكر من المواقف في هذا الخبر ما كان يتمتع به المجاهدون آنذاك من اليقظة ودقة الرصد ، حيث لم يستطع رسول الروم أن يفلت منهم مع أن الروم قد أجادوا اختياره ، حيث اختاروا رجلاً يجيد اللغة العربية بفصاحة ، حتى يظن المسلمون أنه واحد منهم إذا خاطبوه ، ولقد كان لهذا التفوق في الرصد الحربي أثره الكبير في سير أحداث المعركة ، حيث جنّب المسلمين خطر الهجوم المباغت الذي خطط له الأعداء .

هذا وإننا لنجد في خبر هذه المعركة عبراً عظيمة : منها ما نتج عن تكاسل حاكم عمورية في بناء السور لما تهدم من أثر السيل ، فلقد جر تكاسله هذا وبالأعلى عليه وعلى قومه ، وقد كانت عمورية ترد الغزاة من قوة ومثانة سورها ، لكن هذا الخطأ الفادح من أميرها كان سبباً في

(١) تاريخ الطبري ٦٣/٩ - ٦٨ باختصار .

انتصار المسلمين وهزيمة الروم ، ولقد كان هذا الوالي يفقد عاملاً مهماً من عوامل النجاح في الحكم وهو الخزم .

ومنها تخاذل قادة الروم عن حماية مدينتهم ، واعتبارهم كل واحد منهم أن مسؤوليته منحصرة في حماية الجزء المخصص له من السور، وكانت الحكمة والسياسة الحربية أن يجتمعوا على حماية مدينتهم من ذلك السور المتهدم ، لأن دخول المدينة من جهة يعني الاستيلاء عليها جميعها .

وهذا الموقف المتخاذل الأناني يدل على تفرق قادة الروم، وعدم وجود قائد قدير يخطط لهم وينفذون أوامره .

ومنها أن تركيز المسؤولية في القادة الكبار البعيدين عن ميدان المعركة له أثر كبير في الفشل والهزيمة ، فإن القائد الرومي الذي عزم على مباغطة المسلمين بالحملة عليهم ، ثم الانحياز إلى ملك الروم لم يكن قادراً على تنفيذ تلك الخطة إلا باستئذان ملك الروم الذي بينه وبينه مسافة بعيدة ، فإلى أن يذهب الرسول - فيما لو سلم - وحتى يعود تكون المعركة قد حُسمت بينهم وبين المسلمين .

أما قادة المسلمين فإنهم قد عرفوا المبادئ العامة التي يسير عليها قادتهم عادة والأحكام والآداب الإسلامية التي يلزمهم تنفيذها، ثم هم بعد ذلك أحرار في الاجتهاد واتخاذ القرارات اللازمة بعد أخذ مشورة أهل الرأي في جيشهم ، ولذلك فإنهم قد اغتتموا فرصاً كثيرة ماكانوا يستفيدوا منها لو كانوا يرجعون إلى أمير المؤمنين في كل أمورهم .

* * *

٣ - جهاد السلطان ألب أرسلان مع الروم

السلطان ألب أرسلان هو أحد سلاطين السلاجقة وهو محمد بن داود جفري بك بن ميخائيل بن سلجوق ، وقد بلغت حدود سلطته من أقاصي بلاد ماوراء النهر إلى أقاصي الشام ، ومع ذلك كان تابعاً لخلفاء بني العباس ، وكان كريماً عادلاً عاقلاً ، وقد دخل بعض الأمراء تحت سلطانه لحسن سيرته وعدله .

وقد توفي مقتولاً بيد أحد الولاة وهو يوسف الخوارزمي وكان السلطان أرسلان يريد قتله فعاجله يوسف وقضى عليه وذلك في سنة خمس وستين وأربعمائه (١) .

معركة « ملاذكُرد » :

هذه معركة مشهورة حاسمة جرت بين المسلمين بقيادة ألب أرسلان وبين الروم بقيادة أرمانوس ، وفي خبرها يقول ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وستين وأربعمائه : في هذه السنة خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفرنج ، والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، فجاؤوا في تجمُّل كثير وزيٍّ عظيم ، وقصدَ بلاد الإسلام فوصل إلى ملاذكُرد من أعمال خلاط ، فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر وهو بمدينة خُويٍّ من أذربيجان قد عادَ من حلب ، وسمع مافيه ملك الروم من كثرة الجموع ، فلم يتمكن من جمع العساكر لبُعدها وقُرْب العدو ، فسيرَ الأتقال مع زوجته ونظام الملك إلى هَمَذان ، وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسة عشر

(١) الكامل لابن الأثير ١١٣/٨

ألف فارس ، وجدّ في السير ، وقال لهم : إنني أقاتل محتسبا صابرا ،
فإن سلمتُ فنعمةٌ من الله تعالى ، وإن كانت الشهادة فإنّ ابني مَلِكُشاه
وليُّ عهدي .

وساروا ، فلما قارب العدوُّ جعل له مقدمة ، فصادفت مقدمتهُ
عند خلاط مُقَدَّم الرومية في نحو عشر آلاف من الروم ، فاقتتلوا ،
فانهزمت الرومية ، وأسرَ مقدّمهم فحُمِل إلى السلطان فجدع أنفه ،
وأخذ بالسلب إلى نظام الملك ، وأمره أن يرسله إلى بغداد .

فلما تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه
المهادنة ، فقال : لاهدنة إلا بالرّي ، فانزعج السلطان لذلك ، فقال
له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاريُّ الحنفي : إنك
تقاتل عن دين وعدّ الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن
يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالقهم يوم الجمعة بعد
الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون
للمجاهدين بالنصر ، والدعاءُ مقرون بالإجابة .

فلما كان تلك الساعة صلى بهم ، وبكى السلطان فبكى الناس
لبكائه ، ودعوا ودعوا معه ، وقال لهم : من أراد الانصراف
فلينصرف ، فما ههنا سلطان يأمر وينهى ، وألقى القوس والنشاب ،
وأخذ السيف والدبوس ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره
مثله ، ولبس البياض وتحنّط ، وقال : إن قُتلت فهذا كفني .

وزحف إلى الروم ، وزحفوا إليه ، فلما قاربهم ترجّل وعفّر
وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء ، ثم ركب وحَمَل ، وحملتِ

العساكر معه ، فحصل المسلمون في وسطهم ، وحجز الغبار بينهم ،
فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا ، وأنزل الله نصره عليهم ، فانهزم
الروم ، وقُتل منهم ما لا يحصى ، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى .
وأُسِر ملك الروم ، أسره بعض غلمان كوهرائين فأراد قتله ولم
يعرفه ، فقال له خادم الملك : لا تقتله فإنه الملك ، وكان هذا الغلام قد
عرضه كوهرائين على نظام الملك فردّه استحقاقاً له ، فأتى عليه
كوهرائين ، فقال نظام الملك : عسى أن يأتيانا بملك الروم أسيراً فكان
كذلك ، فلما أسر الغلام الملك أحضره عند كوهرائين ، فقصد
السلطان وأخبره بأسر الملك ، فأمر بإحضاره ، فلما أُحضر ضربه
السلطان ألْب أرسلان ثلاثة مقارع بيده ، وقال له : ألم أرسل إليك في
الهدنة فأبيت ، فقال : دعني من التوبيخ وافعل ما تريد ، فقال
السلطان : ماعزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟ فقال : أفعل القبيح ،
قال له : فما تظن أني أفعل بك ؟ قال إما أن تقتلني ، وإما أن
تشهّرني في بلاد الإسلام ، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال
واصطناعي نائباً عنك ، قال : ماعزمت على غير هذا ، ففداه بألف
ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي
وقت طلبها ، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم ، واستقر الأمر على
ذلك ، وأنزله في خيمة ، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها ،
وأطلق له جماعة من البطارقة ، وخلع عليه من الغد ، فقال ملك
الروم : أين جهة الخليفة ؟ فدلَّ عليها فقام وكشف رأسه وأوماً إلى
الأرض بالخدمة ، وهادنه السلطان خمسين سنة ، وسيره إلى بلاده ،

وسير معه عسكرياً أوصلوه إلى مأمنه ، وشيَّعه السلطان فرسخاً (١) .
وهكذا عشنا مع هذا الخبر الذي ضرب فيه المسلمون بقيادة
السلطان ألب أرسلان مثلاً عالياً في البطولة والتضحية .
فهذه المعركة الهائلة لا يشبهها إلا بعض معارك الصحابة رضي الله
عنهم كاليرموك ونهاوند ، حيث يتقابل المسلمون مع عشرة أضعافهم
وأكثر ، ثم يكون النصر إلى جانب المسلمين في ساعات معدودة .
ولقد ظهرت القوة المعنوية للمسلمين في هذه المعركة بشكل بارز ،
حيث لم يعد هناك نظر إلى السلاح ، وإنما اشرأبت الأعناق إلى من
بيده مقاليد كل شيء جل وعلا ، وأيقن القادة والجنود أنه إذا لم
يتداركهم الله سبحانه بنصر من عنده فإنهم لن يكسبوا المعركة أبداً ،
ولكنهم قد وطنوا أنفسهم على البديل الأعلى ، وهو أن يتقبلهم الله
تعالى شهداء ، وتعلقت آمالهم بإحدى الحسينين: إما النصر أو الشهادة .
ولقد كان لقائد المسلمين أثر كبير في تقوية معنويتهم ، وتعبئة
مشاعرهم نحو الثبات أمام الأعداء .
ولاننسى أثر العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبد الملك
البخاري ، فقد قام بتأييد السلطان ، وقوى قلبه برجاء أن يكون الفتح
على يديه ، وبتذكيره بالهدف السامي الذي يجاهد من أجله وهو نصر
هذا الدين العظيم الذي وعد الله سبحانه بنصره على جميع الأديان ،
وأرشده إلى الوقت الأفضل للهجوم على الأعداء ، فتقبل السلطان
توجيهاته ، وقوي أمله بالله تعالى .

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٠٩ - ١١٠ ، وانظر البداية والنهاية ١٢/ ١٠٧ - ١٠٨ .

وهكذا يؤدي العلماء الربانيون دورهم المطلوب منهم في تقوية الروح المعنوية لدى المجاهدين ، وهذا هو السلاح القوي الذي يملكه المسلمون الصادقون ، ويفقده أعداؤهم ، وقد ظهر واضحاً في هذه المعركة أثر هذا السلاح .

أما المحاورة التي جرت بين السلطان ألب أرسلان وملك الروم فإنها كانت مثالا عاليا في تمثيل أخلاق المسلمين وعلو سياستهم .

وإن هذه المعاملة إضافة إلى كونها تمثل أخلاق المسلمين المعروفة في إكرام الزعماء وتألفهم للإسلام ، فإنها من الناحية السياسية قد ضمنت لزعماء المسلمين حقهم في التكريم والاحترام فيما لو وقعوا أسرى لدى الأعداء لعقود من الزمن .

فلله در هذا السلطان الكبير والسياسي القدير !!

لقد جاء ملك الروم بِقَضَهِ وَقَضِيضِهِ وخيله ورجله وعتاده ليقضي على المسلمين وليمحو الإسلام من الوجود، وكان من غروره أنه أقطع بلاد المسلمين لأمرائه ، فكان له بالمرصاد فرقة من جيوش المسلمين أبادت خضرائه وحطَّت كبريائه ، وعاد ذلك الجبار المتغطرس يقبل الأرض بين يدي السلطان ألب أرسلان ويتودد له ليقبله نائبا عنه ، وذلك منتهى الشعور بالذلة والمهانة ، وإذا كان جزء من جيش السلطان أرسلان قد سحق جيشه فكيف لو أحضر السلطان جيشه كاملا ؟ وكيف لو اتفق مع بقية أمراء المسلمين على جهاد الروم ؟ !

* * *

الجهاد مع الروم
فى
عهد العثمانيين

نشأة هذه الدولة :

الدولة العثمانية تنسب إلى عثمان بن أرطغرل بن سليمان، وجده سليمان هو زعيم إحدى قبائل الغُزّ التركية، الوافدة من بلاد تركستان على إثر هجمات التتار على بلاد الإسلام ، وقد وصل سليمان بقبيلته إلى بلاد الأناضول عام سبعة عشر وستمائة ، ثم عاد بقبيلته إلى بلاده بعدما هدأت الأوضاع على إثر وفاة جنكيز خان زعيم التتار، لكنه توفي غرقاً في أحد الأنهار قرب مدينة حلب ، فاختلف أبناؤه من بعده ، فواصل السير بعضهم ، وقرر أرطغرل العودة إلى بلاد الأناضول فعاد معه أربعمائة أسرة من القبيلة .

وقدر الله تعالى أن يواجه أرطغرل ومن معه جيش السلاجقة بقيادة علاء الدين السلجوقي وهم يقاتلون أعداءهم، فقام أرطغرل بنصر السلاجقة الذين كانوا قد أقاموا دولة إسلامية في بلاد الأناضول، فكافأه علاء الدين بأن أقطعه جزءاً من بلاده المجاورة للروم في مقاطعة « اسكي شهر » .

ثم توفي أرطغرل وخلفه على تلك الإمارة ابنه عثمان ، وشاء الله تعالى أن يموت السلطان علاء الدين السلجوقي عام تسعة وتسعين وستمائة ولم يكن له خليفة يخلفه ، فحصلت فتن واضطرابات فقام عثمان بالاستيلاء على دولته ، وكان ذلك بداية نشأة الدولة العثمانية .

وقد أحسَّ الأعداء من الروم والتتار بخطورة هذه الدولة الناشئة فقاموا بقتالها ، وكان من أعظم الانتصارات التي حققها السلطان عثمان استيلائه على مدينة « بورصة » الحصينة ، وحينما حاول الروم

الاستعانة بالتار توجه عثمان نحو التار فشنت شملهم، وحاصر بورصة حتى استولى عليها في عام سبعة عشر وسبعمائة ٧١٧هـ الموافق ١٣١٧م ، وقد أصبحت بورصة بعد ذلك عاصمة الدولة العثمانية .

ثم تولى السلطان أورخان بن عثمان بعد وفاة أبيه وذلك في عام ستة وعشرين وسبعمائة ٧٢٦هـ الموافق ١٣٢٦م ، وفي عهده تم تنظيم الجيش العثماني ، وبدأ تكوين جيش الانكشارية ، وهو جيش مكون من أبناء الدول الأوربية الشرقية بعدما دخلوا في الإسلام وتم تدريبهم الحربي ، وقد أصبح لهم أثر كبير في توطيد دعائم الدولة العثمانية، وفي عهده توسعت الدولة العثمانية حيث استولى على عدد من الأقاليم الآسيوية .

وفي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة - ٧٥٨هـ الموافق ١٣٥٧م- اجتاز سليمان باشا أكبر أولاد السلطان أورخان وولي عهده مضيق الدردنيل الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة ومعه جزء من جيشه تحت أستار الظلام ، حتى إذا وصلوا إلى الضفة الأخرى قبضوا على ماكان بها من القوارب وعادوا بها إلى الضفة المعسكرة عليها جيوشهم، فانتقل الجيش إلى ضفة أوروبا، وكان عدده ثلاثين ألفا، واحتل ميناء « ترنب » ، ووقفوا بسقوط جزء من أسوار مدينة «جاليولي» التي تقع على مضيق الدردنيل من جهة أوروبا ، وذلك بسبب زلزال شديد ، فدخلها العثمانيون بدون عناء ، وكان ذلك بداية استيلاء العثمانيين على شرق أوروبا .

وقد توفي سليمان بن أورخان بعد ذلك بعام وانتقلت ولاية العهد إلى أخيه مراد .

ثم تولى السلطان مراد الأول بن أورخان بعد وفاة أبيه عام واحد وستين وسبعمائة ٧٦١هـ الموافق ١٣٦٠م ، وفي عهده بدأ جهاد العثمانيين في أوروبا الشرقية بشكل واضح ، حيث استولى على إمارات البلقان ، وسقطت مدينة « أدنة » بأيدي العثمانيين ثم اتخذوها عاصمة لهم ، كما تم فتح مقدونية وصوفيا وسالونيك ، ومن أبرز المعارك التي خاضها العثمانيون في شرق أوروبا معركة قوصوه وكانت بقيادة السلطان مراد نفسه وقد انتصر فيها العثمانيون على جيش كثيف من الأحلاف النصرانية التي تكونت من الصرب والبُشناق والمجر والبلغار والالبانيين ، وكانت في هذه المعركة نهاية السلطان مراد حيث كان يتفقد القتلى فقام صربي من بينهم فطعنه على حين غفلة منه فقتله .

ثم تولى السلطان بايزيد بن مراد الأول بعد استشهاد أبيه عام واحد وتسعين وسبعمائة ، ٧٩١هـ الموافق ١٣٨٩م ، وفي عهده قامت حملة صليبية بتحريض من البابا ، فاجتمع جيش أوروبي عظيم بقيادة « سِجِسْمُنْد » ملك المجر فزحفوا على بلدان شرق أوروبا واستردوا بعض البلاد التي استولى عليها العثمانيون ، وكان السلطان « بايزيد » غائبا في آسيا ، فلما علم بذلك عاد سريعا والتقى بهم في معركة كبيرة انهزم فيها الصليبيون شر هزيمة وذلك عام ثمانية وتسعين وسبعمائة ٧٩٨هـ الموافق ١٣٩٦م .

وفي عهد السلطان بايزيد تم حصار القسطنطينية ، وكاد أن يفتحها لولا مداهمة جيش تيمورلنك المغولي من المشرق ، فاضطر إلى فك حصار القسطنطينية والزحف نحو المشرق لمقاومة التتار ، وقد جرت بينهم معركة هائلة أبدى فيها السلطان بايزيد بسالة عظيمة إلا أن تفوق التتار في العدد وتسلل بعض جيش العثمانيين نحوهم جعل المعركة لصالح التتار فانهزم العثمانيون ، ووقع السلطان بايزيد في الأسر هو وابنه موسى وذلك في آخر عام أربعة وثمانمائة ، ثم مات عام خمسة وثمانمائة وتفرق أولاده وحدثت بينهم فتن وحروب كادت تقضي على دولتهم إلى أن استطاع أحدهم وهو السلطان محمد الأول ابن بايزيد أن يسيطر على الوضع ، وقد بقي في السلطة ثماني سنوات قضاهما في حروب داخلية أخضع بها الأمراء الذين انتقضوا على دولته .

وبعد وفاة السلطان محمد الأول عام أربعة وعشرين وثمانمائة ٨٢٤هـ الموافق ١٤٢١م ، تولى السلطة ابنه مراد الثاني والد السلطان محمد الفاتح ، وفي عهده أكمل العثمانيون سيطرتهم على آسيا الصغرى وشرق أوروبا .

ومن أشهر المعارك التي خاضها معركة « واره » ، وكان السلطان مراد قد تنازل عن السلطنة لابنه محمد الفاتح ، وكان آنذاك صغير السن حيث لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره فاغتر بذلك ملوك أوروبا الذين كانوا قد عقدوا هدنة مع السلطان مراد فنقضوا الهدنة واغتمموا فرصة غياب السلطان مراد حيث كان في عزلة في إحدى

قرى الأناضول ، وجمعوا جيشاً كبيراً بتحريض من البابا « أوجانيوس الرابع » ، وما أن علم السلطان مراد بذلك التجمع حتى خرج من عزلته وعبر مضيق البسفور ومعه أربعون ألفاً قد اختارهم من الجيش العثماني ، فزحف بهم نحو تجمع الأعداء ، ودارت بين الفريقين معركة رهية تحت أسوار مدينة « واره » ، وقد كاد النصر أن يكون لحليف النصارى لما يتمتعون به من الحماس والحمية الدينية، ولكن ما قام به السلطان مراد من قتل ملك المجر قد غير مسيرة المعركة، حيث أصيب الأعداء بالخوف والهلع لما رأوا رأس ملك المجر مرفوعة على رمح والمسلمون يكبرون فرحين ، فحمل المسلمون عليهم وهزمهم شر هزيمة وذلك في عام ثمانية وأربعين وثمانمائة .

وفي عام خمسة وخمسين وثمانمائة ٨٥٥ هـ الموافق ١٤٥١ م ، تولى السلطان محمد الفاتح بن السلطان مراد ، وقد لُقّب بالفاتح لما تم على يديه من فتح القسطنطينية الذي يعتبر من أعظم فتوحات المسلمين (١) .

فتح القسطنطينية :

لقد كان هذا الفتح أملاً كبيراً يتمنى قادة المسلمين تحقيقه منذ أن طرق مسامعهم قول رسول الله ﷺ « لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنَنْعَمَ

(١) انظر كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » لمحمد فريد بك المحامي ص ١١٣-١٥٩ وكتاب « تاريخ الدولة العثمانية » للدكتور على حسون ٨-٢١ ، وكتاب « السلطان محمد الفاتح » للدكتور عبد السلام فهمي ١١ - ٢٢ ، وكتاب « التاريخ الإسلامي » للدكتور أحمد شلبي ٦٦٩/٥ - ٦٧٦ .

الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » (١) ، وقد سبق ذكر الحملة الجهادية التي كانت في عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه وكانت بقيادة ابنه يزيد ، والحملة الأخرى التي كانت في عهد سليمان بن عبد الملك وكانت بقيادة أخيه مسلمة ، ثم كانت محاولات أخرى ، ولكن فتح هذه المدينة كان مدخرا للسلطان الشاب الشجاع محمد بن مراد العثماني الذي حاز على لقب الفاتح بعد ذلك ، فكيف تم فتح هذه المدينة العظيمة التي أعجزت قادة المسلمين قبل ذلك .

لقد كان واضحا لدى سلاطين آل عثمان أن فتح القسطنطينية لا يتم إلا من جهة أوروبا لكونها محاطة من جهة آسيا بالبحر ، فلذلك عقدوا العزم على توسيع فتوحاتهم في شرق أوروبا ، ثم نقلوا عاصمتهم إلى « أدرنه » بعد فتح جزء كبير من أوروبا ، فأصبحوا يستطيعون حصار القسطنطينية من جميع جهاتها بعد أن صارت مملكة صغيرة في داخل إمبراطوريتهم الواسعة ، فكانت هذه الأعمال الجهادية السابقة تمهيدا لما قام به السلطان محمد الفاتح من فتح هذه المدينة .

ولما عزم السلطان الفاتح على فتح القسطنطينية زحف بجيش يبلغ خمسين ألفا ، ثم سيطر على جميع منافذ المدينة حتى لا يصل إليها مدد من الخارج .

وقد عرض السلطان الفاتح على ملك الروم قسطنطين أن يسلم المدينة في مقابل سلامة جميع من فيها على أرواحهم وممتلكاتهم ،

(١) مسند أحمد ٣٣٥/٤ .

فرفض قسطنطين ذلك ، وكان ذلك في اليوم الخامس عشر من شهر جمادى الأولى من عام سبعة وخمسين وثمانمائة ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م .

ولما كان لابد من الحرب فإن السلطان أمر برمي أسوار المدينة بالمدافع ، وكان الجيش التركي مزوداً بمدافع من أضخم وأحدث المدافع الموجودة في العالم آنذاك .

وقد خاطب الفاتح قاده بقوله : إن تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته ، وسيكون من حظنا ماأشاد به هذا الحديث من التقدير ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم مايجافي هذه التعاليم ، وليجتنبوا الكنائس والمعابد ولايمسوها بأذى ، ويدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لايقاتلون .

وهذا الخطاب يبين لنا ارتباط الفاتح الوثيق بالدين واستمداده النصر من الله تعالى . وأنه كان يقاتل عن عقيدة دينية قوية ، وقد أشاع هذه العقيدة في قاداته وجنده حتى أصبحوا يقاتلون بمعنوية عالية ، إلى جانب ماترودوا به من سلاح مادي قوي ، وإذا اجتمعت القوتان المعنوية والمادية حصل النصر بإذن الله تعالى .

خطط حربية ناجحة :

كان أقرب مكان للسيطرة على القسطنطينية من البحر من ناحية

ميناء القرن الذهبي ، وكان الروم يدركون خطورته فيما لو دخلت منه سفن المسلمين فوضعوا في مدخله سلسلة حديدية ضخمة ، وقد حاول المسلمون قطع هذه السلسلة فلم يستطيعوا لقوة الحامية المكلفة بالحراسة من الروم ، ففكر السلطان الفاتح بخطة لنقل السفن من مضيق البوسفور إلى داخل القرن الذهبي عن طريق البر على مسافة ستة أميال تقريبا ، ولما وافق المستشارون على الخطة أمر الفاتح بتمهيد الأرض ومد ألواح الخشب المدهونة بالزيت والشحم ، ثم قام الجنود بسحب السفن عليها ، فاستطاعوا أن يُنزلوا في القرن الذهبي سبعين سفينة في ليلة واحدة ، وقد أذهلت هذه الخطة الأعداء وحطت من معنويتهم الحربية ، حيث أصبح بإمكان سفن المسلمين أن تضرب الأعداء عن قرب وأن تشل حركة الملاحة البحرية لديهم .

ومن الخطط الحربية التي استخدمها المسلمون حفر الأنفاق لإدخال الجنود منها إلى المدينة ، وكانوا كلما اكتشف الأعداء ذلك حفروا في مكان آخر ، فكان ذلك مما جعل الأعداء في رعب دائم لاحتمال أن يفاجئهم المسلمون من أي مكان .

ومن الخطط الحربية المذهلة قيام المسلمين بصناعة برج خشبي مرتفع من ثلاثة طوابق ، وقد فوجئ به الأعداء وهو يعلو أسوارهم وقد تحصن به عدد من المجاهدين الذين استعدوا لاقتحام سور المدينة من أعلاه ، وقد قال المؤرخ البندقي « باربارو » عن هذا البرج الهائل : « لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة لما صنعوها في شهر ، وقد صنعها المسلمون الأتراك في ليلة واحدة ، بل في أقل من أربع ساعات » .

وهذا اعتراف من الأعداء آنذاك بتفوق المسلمين في الصناعات الحربية ، وقد كان ذلك مكملا لتفوقهم في الروح المعنوية المبنية على تمسكهم بالدين الإسلامي الحنيف .

الهجوم الأخير :

حينما استنفذ السلطان الفاتح مقاصده في تحطيم معنوية الأعداء وهدم أجزاء من الأسوار خطط للهجوم العام من البر والبحر فأمر بالهجوم من جميع الجهات وانطلق الجنود المغامرون نحو الأسوار وصعدوا على السلاالم في محاولة للهبوط على المدينة بشكل مكثف، ولكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من الأعداء ، سواء من جهة البر أو البحر ، واستطاع الأعداء أن يقلبوا بهم السلاالم ، وسقط عدد من المسلمين صرعى تحت الأسوار، ولكن ذلك لم يفت في عزائم المسلمين، بل استمروا في الهجوم ، وكان السلطان يدفع بالجنود إلى الأسوار بالتناوب ، وكان ذلك يعطي المسلمين قوة حيث تواجه كل فرقة منهم جيش الأعداء وأفراده قد أنهكوا من ضراوة الحرب وعنف المقاومة ، وكان السلطان يقصد بذلك تحطيم معنوية جيش الأعداء حتى تضعف مقاومتهم ، وفي أثناء ذلك الهجوم المتواصل استطاع أحد الجنود الأتراك أن يقتل قائد الأعداء في المنطقة الشمالية مبارزة، وبمقتله انهارت معنويات فرقته ووَلَّى أفرادها هاربين، فانتهاز السلطان هذه الفرصة فدفع بأفراد فرقة الانكشارية المشهورين بالشجاعة والمغامرة إلى ذلك المكان فاندفعوا كالسيل الجارف واستطاعوا دخول المدينة ورفعوا فوق أسوارها أعلام العثمانيين .

وفي أثناء ذلك أصيب جستنيان أبرز قادة الأعداء بجرح بليغ ونُقل بعيداً عن ميدان المعركة ، أما الملك قسطنطين فإنه أصيب بالفرع والذعر الشديد حينما رأى جنود العثمانيين ينطلقون بعنف وسرعة نحو داخل المدينة ، فتزل عن حصانه وخلع ملابسه القيصرية وصار يدافع بسيفه حتى قتل .

وفُتحت جميع أبواب المدينة بعد أن فرَّ حماؤها وتم فتح هذه المدينة العريقة التي استعصت على جميع الغزاة من قبل وذلك في عام ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م ، وتحقق في ذلك الأمير الشاب وجنوده بشارة النبي ﷺ وثناؤه العظيم (١) .

فتح مدينة بلغراد :

بعد أن توفي السلطان محمد الفاتح في عام ستة وثمانين وثمانمائة خلفه في الحكم ابنه بايزيد ، ثم تنازل عن الحكم لولده السلطان سليم عام ثمانية عشر وتسعمائة ، فلما توفي خلفه في الحكم ابنه سليمان القانوني عام ستة وعشرين وتسعمائة ، وهو عاشر سلاطين آل عثمان .

وفي عهده تم فتح مدينة بلغراد ، وكان سبب تسيير الجيش نحوها أن ملك المجر قتل السفير الذي أرسله السلطان بطلب دفع الجزية التي كانت مقررة قبل ذلك ، فاستشاط السلطان غضبا وأمر بتجهيز جيش كبير لمحاربة المجر وقاده بنفسه ، وأرسل أحد مشاهير قواده وهو أحمد باشا لمحاصرة مدينة شابتس التي تقع إلى الشمال من

(١) انظر تاريخ الدولة العلية / ١٦٠ - ١٦٥ ، وكتاب الدولة العثمانية / ٢٢-٣٢ ،

وكتاب « السلطان محمد الفاتح » / ٧٥ - ١٢٦ .

بلغراد وذلك في شعبان عام سبعة وعشرين وتسعمائة ففتحها ، ثم وجه السلطان ذلك الجيش لمساعدة الجيش الذي يحاصر بلغراد ، وقد تم فتح هذه المدينة المشهورة بعد دفاع شديد ، ثم أصبحت بعد ذلك معقلا للمسلمين تنطلق منه الجيوش لفتح ما وراء نهر الدانوب (١) .

وهكذا كانت رايات المسلمين ترفرف وسط أوروبا ، وهي تحمل عزة الإسلام وقوة دولته ، ولولا ما كان يحصل في تاريخ المسلمين من الحروب الداخلية التي كانت تضعف قوتهم لاكتحست جيوشهم أوروبا كلها وغيرها من بلاد العالم .

فتح جزيرة رودس :

كانت جزيرة رودس معقلا حربيا لأعداء الدولة العثمانية تلجأ إليه سفنهم الحربية ، ولقد حاول أسلاف السلطان سليمان القانوني فتح هذه الجزيرة فلم يتمكنوا لشدة اهتمام الدول الأوروبية بها وحمايتهم لها ، ولقد كان الدافع للاهتمام بفتحها أن تكون حلقة اتصال بين اسلامبول ومصر ولكي لا تكون مركزا حربيا للأعداء .

ولقد انتهز السلطان سليمان فرصة انشغال ملوك أوروبا بحرب بينهم فجهز جيشا بحريا وآخر بريا ليكون على الساحل المقابل للجزيرة ، وقبل الهجوم أرسل السلطان إلى رئيس الرهبان الذين كانوا مسيطرين على الجزيرة يدعوهم إلى إخلاء الجزيرة مع ضمان عدم التعرض لأنفسهم وأموالهم ، فلم يقبل رئيسهم هذا العرض فأمر السلطان بحصارها ، ولقد قاوم أهلها بما عندهم من سلاح ولكنهم لم

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية / ١٩٩ - ٢٠٢ .

يستطيعوا الصمود أمام المدافع العثمانية ، فأرسل رئيسهم اثنين من رهبانه إلى السلطان يطلب منه السماح لهم بإخلاء الجزيرة وغادروها إلى جزيرة مالطة ، وبذلك أصبحت جزيرة رودس جزيرة إسلامية تحت سلطان الدولة العثمانية (١) .

وهذا مثل جيد في دراسة واقع الأعداء ، وانتهاز الفرص المناسبة لتحقيق المكاسب الحربية بأقل الخسائر، وهذا يحتاج إلى رصد حربي دقيق واستعداد قوي بالرجال والسلاح لتحقيق الأهداف المطلوبة في الوقت المناسب .

إنقاذ تونس من النصارى :

قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه « نزهة الناظرين » عند ذكر السلطان سليم ولد السلطان سليمان مانصه : وكانت ولايته سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وفي أيامه كان فتح حلق الوادي ببلد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب وآل حفص فصار بعضهم يتقوى على بعض بالإفرنج وأطمعهم في بلاد المسلمين فاستولوا عليها وتمكنوا منها وحصنوا الحصون وأحكموا القلاع بحيث أيس المسلمون من فتحها وصاروا تحت حكم الإفرنج وأخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد، فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب (٢) مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب وصحبة

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية / ٢٠٣ - ٢٠٦ .

(٢) أي سفينة .

ذلك سنان باشا وقلج علي باشا ، وكانت غزوة مشهورة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها لمؤلف ، فنصر الله المسلمين بعد أن قُتل منهم عشرة آلاف مع الحصار المديد والقتال الشديد . ومن العجائب أن الإفرنج كانوا أنشأوا هناك قلعة منيعة أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثا وأربعين سنة فافتتحها المسلمون بصحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يوما من أيام محاصرتها ، وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ، ثم خرب الوزير القلاع والحصون ولم يبق لها رسم ووصلت البشائر للسلطان سليم ، وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني سنة فلم يمهله الأجل رحمه الله . انتهى (١) .

هذا الخبر يبين لنا دور الدولة العثمانية في حماية العالم الإسلامي ، فإنه مع بعد بلاد تونس عن عاصمة الدولة العثمانية فإن السلطان سليم قد أهتم أمرها لما بلغه استيلاء النصارى عليها ، فأرسل لها جيشا بحريا قضى على وجود الأعداء فيها وأعادها إلى حكم المسلمين .

إن هذا الاهتمام الكبير من سلاطين آل عثمان ببلاد الإسلام يجعل الأعداء يترددون كثيرا في الهجوم على أي بلد إسلامي وإن كان صغيرا ولا قوة فيه ، وهذا من مزايا وجود الدولة الإسلامية الكبرى ، فالأشبال في العرين ضعاف وليس بإمكانهم إنقاذ أنفسهم ، ولكن

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن موسى / ١٢٩٩ عن كتاب « نشر المثاني »

للشيخ محمد القادري .

يوشك أن يعود الأسد إلى عرينه فينتقم ممن أوقع الضرر بأشباهه وإن بعد مكانه .

جهاد المتمردين في بلاد الأفلاق :

كان ميخال حاكما لبلاد الأفلاق من قبل السلطنة العثمانية ، فخرج عن الطاعة وجمع جموعاً من النصارى وتمرد وعاث في بلاد العثمانيين في أوروبا ، فأرسل له السلطان محمد بن مراد بن سليم جيشاً بقيادة أحد وزرائه ، ولكن الأعداء ظفروا به وبجيشه فزاد الأعداء عتوا وتجبوا .

وقد أشار عليه وزيره سنان باشا بأن يسافر إلى الأعداء بنفسه ، فخرج بجيشه من دار خلافته في شوال سنة أربع بعد الألف ، ووصل إلى قلعة في غاية المنعة والتحصين ، فنازلها بجنوده فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا طائعين ، وسلموها في أواخر صفر سنة خمس وألف ، ووصل خبر أخذها إلى ملك الأنكروس فقام وقعد وأرغى وأزبد لأنها كانت عندهم من القلاع المعتبرة ، فكاتب ملوك النصارى يطلب الإمداد منهم بالعساكر والذخائر فجاؤوا إلى إمداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء ، وكان السلطان محمد سار بعسكره إلى القلعة التي بها المعدن فبينما هو في أثناء المرحلة الثالثة إذ دهمته النصارى من كل جانب وأحاطوا به وكان عسكر الإسلام حينئذ غير مستعد والنصارى في غاية الكثرة جداً بحيث إن جمعهم المخذول لا يُحصى ، وكان يوم دهمتهم يوم الخميس ثاني شهر ربيع الأول من السنة ووقع حرب عظيم في ذلك اليوم كله إلى أن دخل الليل فتفرقوا ، وأصبحوا يوم الجمعة

متحاربين أيضا واستعدت النصارى أزيد من اليوم الأول فكانوا غرقى في الفولاذ ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بدداً ووصلوا إلى ميخم السلطان فطلب السلطان إليه معلمه الخوجه سعد الدين وكان في صحبته فحضر بين يديه وجعل يثبته ، والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله ، فلم يكن بأسرع من أن قَوِيَ المسلمون وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القتال ، وتراجع جميع العسكر فكسروا النصارى وردّوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فارّون حتى قتل بعضهم بعضاً من الزحام وغيره ، ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ولم يسلم أحد من الكفار إلا من هرب ، وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة ، وأكثر ذلك كان على يد الوزير سنان باشا ابن جفال والوزير حسن باشا ابن محمد باشا ، وأُحصيتْ قُتلى المسلمين فكان الذي استشهد من القوَاد مايقرب من أربعمائة ، ومن أصحاب الألوية المعبر عنهم في اصطلاح الروم بالصناجق بضعة عشر رجلاً ، ومن الأمراء الكبراء أربعة أنفار ، ومن العساكر مابين فارس وراجل مالا يُحصى ، ووافق بعد الظفر أن السلطان قتل من عسكره الفارّين جماعة كثيرين وقبض على باقيهم وحقرهم غاية التحقير في منصرفه وعاقب بعض من فرّ بقطع علوفته^(١) وضبط ملكه وماله لجهة بيت المال .

والحاصل أن ما وقع له من هذه النصره لم يقع لأحد من ملوك آل عثمان ، وذلك إنما هو بمحض لطف إلهي وإمداد رباني غير متناه ، ولقد حكى كثير من السيّاح أن ملوك الفرنج تطلق على هذا السلطان :

(١) أي راتبه .

« صاحب القرآن » وهذا الوصف إنما هو لمن بلغ في الشجاعة المرتبة التي لأتسمى ، وأنهم على عاداتهم يصورون ملوك آل عثمان فيقدمون هذا في التصوير على كل الملوك وذلك كله بسبب هذه النصره التي رزقها (١) .

وبعد : فإن ماجرى في هذه المعركة من انتصار المسلمين كان على خلاف المعتاد في المعارك الحربية ، فالسلطان محمد كان في جيش صغير بالنسبة لجيوش النصارى الكثيرة التي اجتمعت من بلاد كثيرة ، وداهمت المسلمين على غرة ، ولقد حصل في بداية المعركة انهزام وتفرق في جيش المسلمين أمام هجوم النصارى المركز ، وهذا شيء طبيعي ، ولكن الشيء الذي جرى على خلاف المعتاد أن ينتصر السلطان هو ومن ثبتوا معه وهم قليل على عدو يفوقهم كثيرا في العدد والاستعداد ، ولاتفسير لذلك إلا ماكان من لجوء السلطان إلى الله عز وجل واستغاثته به ، وماكان من معلمه سعد الدين الذي ظل يشبهه ويقوي عزيمته ، فكان هذا السلاح المعنوي أقوى من كل ماعده الأعداء من جنود وذخائر ، وإذا تذكرنا ماجاء في ترجمته من أنه كان صالحا عابدا ساعيا في إقامة الشعائر الدينية مراعيًا لأحكام الشريعة ، فإننا لا نستغرب أن يظفر بنصر الله تعالى وتأييده .

إن الجندي بحكم تكوينه الجسماني يملك طاقة كبيرة ، ولكنه لا يستخدم - عادة - إلا قليلا منها ، وهذا القليل في الحرب يصرف جزءا منه للدفاع عن نفسه فيكون جهده الذي يبذله في الهجوم بنسبة

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى / ١١٤٠-١١٤٣ ، عن كتاب

« خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للشيخ فضل الله المحبي .

قليلة جدا ، ولكن حينما يدخل في ميزان المعركة عامل الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره الذي يفرض على المسلم أن يؤمن بأنه لا يمكن أن يموت قبل حلول أجله . . وحينما يدخل عامل الإيمان بأن المسلم إنما ينتظر في جهاده إحدى الغايتين الحسنيين : إما الظفر بالنصر العزيز على الأعداء ، وإما الظفر بالشهادة التي هي أسمى أمانى المؤمنين . . حينما يدخل ذلك في ميزان القوى فإن الجندي الذي يحمل هذه المعاني السامية سيقا تل أعداءه بكل ما وهبه الله جل وعلا من طاقة ، وبالتالي فإنه سيكون معادلا لعشرات الجنود ممن لا يحملون هذه المعاني .

وذلك إلى جانب ما يعتقد به المؤمن من أن الله تعالى يمد أوليائه المؤمنين المتقين بمدد من ملائكته الكرام عليهم السلام ، فهو حينما يلقي أعداءه لا ينظر إلى عدد أفراد جيشه ، وإنما يكون فكره متجها نحو السماء بطلب المدد من الله تعالى .

وما جاء في آخر هذا الخبر من أن ملوك الفرنج كانوا يطلقون على السلطان محمد بن مراد بأنه صاحب القرآن دليل على اعتقادهم بأنه قريب من الله تعالى وأن نصره عليهم في هذه المعركة لم يكن بجهود مادية وإنما كان بتأييد من الله جل وعلا لتطبيقه ما جاء في كتابه سبحانه .

وهكذا تم عرض أمثلة من جهاد العثمانيين ، ولم يكن المقصود استيعاب ذلك ولا كتابة تاريخ لهذه الدولة العظيمة ، وإنما المقصود بيان شيء من مواقفهم في إعزاز الإسلام والجهاد في سبيله .

* * *

مواقف وعبر

فی

جهاد المسلمين فی بلاد السند والهند

الجهاد والفتوحات

فى

عهد الأمويين

نبذة عما سبق من الأحداث :

لقد كانت رغبة المسلمين في فتح بلاد السند منذ عهد عمر رضي الله عنه ولكن حال دون ذلك انشغال المسلمين بجهاد الدولتين العظميين آنذاك دولة فارس والروم ، إلى جانب قلة الموارد وكثرة عصابات اللصوص في تلك البلاد .

ففي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدأ الجهاد في السند والهند، ومن أخبار ذلك ما ذكره البلاذري من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولى على عمان والبحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي في السنة الخامسة عشرة للهجرة، وأنه مضى إلى عمان ووجه أخاه الحكم إلى البحرين^(١) ، وذكر أن عثمان ابن أبي العاص قاد حملة بحرية إلى « تانه » ، ووجه حملة أخرى بحرية إلى « بروص » بقيادة أخيه الحكم ، وحملة بحرية ثالثة إلى « خور الديبل »^(٢) وذكر أنه لقي العدو فظفر ، وأنه كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه ذلك ، فكتب إليه : يا أخا ثقيف حملت دودا على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم^(٣) .

(١) البحرين هي الأحساء كما تقدم .

(٢) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن تانه يطلق عليها « تهان » وأنها مدينة هندية قديمة على البحر في شمال مدينة بومباي الحالية ، وذكر أن بروص يطلق عليها « بهروج » وأنها على ساحل الهند أيضا ، وذكر أن « خور الديبل » يحتمل أن تكون هي مدينة كراتشي الحالية وسيأتي ما يؤيد ذلك - موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٣١ - .

(٣) فتوح البلدان / ٦٠٧ .

وهكذا غضب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على عثمان بن أبي العاص الثقفي لكونه أولاً غزا بلاد السند والهند بغير إذنه، ولكونه ثانياً لا يرى الوقت مناسباً لهذا الغزو حيث إن المسلمين لم يصلوا إلى تلك البلاد عن طريق البر، فهو يخشى على المسلمين أن يُقتطعوا ويهلكوا في البحر .

ولكن لما وصل الفتح الإسلامي إلى مشارف تلك البلاد أذن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بغزوها، وذلك في سنة ثلاث وعشرين، وفي ذلك يقول الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فيما يرويهِ عن شيوخه :

قالوا : وقصد الحَكَم بن عمرو التغلبيّ مَكْران ، حتى انتهى إليها، ولحق به شهاب بن المخارق بن شهاب، فانضم إليه، وأمدّه سهيل بن عديّ ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبان بأنفسهما، فانتھوا إلى دُوَيْن النهر، وقد انفضّ أهل مكران إليه حتى نزلوا على شاطئه، فعسكروا ، وعبر إليهم راسل ملكُهم ملك السند^(١)، فازدلف بهم مستقبل المسلمين . فالتقوا فاقتتلوا بمكان من مكران من النهر على أيام، بعدما كان قد انتهى إليه أوائلهم، وعسكروا به ليلحق بهم أخراهم، فهزمهم الله وانهمزم راسل وسُلب ، وأباح المسلمين عسكره، وقُتلوا

(١) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن الطبري أخطأ في جعل « راسل » ملك السند، وذكر أنه حاكم ولاية سنديّة وأنه يطلق عليه نائب الملك، وأن ملك السند هو « جج » الذي تولى الملك من السنة الأولى للهجرة حتى سنة أربعين - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٣٤ - .

في المعركة مقتلة عظيمة، وأتبعوهم يقتلونهم أياماً، حتى انتهوا إلى النهر. ثم رجعوا فأقاموا بمكران. وكتب الحكم إلى عمر بالفتح، وبعث بالأخماس مع صحرار العبدى، واستأمره في الفيلة، فقدم صحرار على عمر بالفتح والمغانم، فسأله عمر عن مكران - وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه - فقال: يا أمير المؤمنين، أرض سهلها جبل، وماؤها وشك^(١)، وتمرها دقل^(٢)، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وماوراءها شر منها. فقال عمر: أسجّاع أنت أم مخبر؟ قال: لا بل مخبر، قال: لا، والله لا يغزوها جيش لي ما أطعت، وكتب إلى الحكم بن عمرو وإلى سهيل ألا يجوزن مكران أحد من جنودكما، واقتصرا على مادون النهر، وأمره ببيع الفيلة بأرض الإسلام، وقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه.

وقال الحكم بن عمرو في ذلك :

لقد شبع الأراملُ غير فخرٍ بفيءٍ جاءهم من مكرانِ
أناهم بعد مسغبةٍ و جهدٍ وقد صفر الشتاء من الدخانِ
فلاني لا يذمُّ الجيشُ فعلي ولا سيفي يُذمُّ ولا سناني^{(٣)(٤)}
فلما ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه وولّى عبد الله بن عامر

(١) الوشل الماء القليل .

(٢) الدقل أردأ النمر .

(٣) في رواية ابن كثير ولا لساني وهو الظاهر لأن السيف هو السنان - البداية ١٣٦/٧ .

(٤) تاريخ الطبري ١٨١/٤ .

ابن كريض على العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه يخبره ، فوجه حكيم بن جبلة العبدى ، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال : ياأمير المؤمنين قد عرفتُها وتَنَحَّرْتُها ، فقال : فصفها لي ، قال : ماؤها وشَلْ، وثمرها دَقْل، ولِصُّها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا، فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ فلم يُغزها أحدا (١) .

يعني هل أنت قصدت السجع في الكلام أم أنك تريد معنى ماتقول ، ولما تبين له أنه يخبره عن حقيقة مارأى عزم على عدم غزو تلك البلاد، وقد تقدم كلام صحار العبدى في وصف تلك البلاد، وهو يشبه كلام حكيم العبدى وكونها قد اتفقا في الوصف دليل على الخبرة الدقيقة .

ثم كانت محاولة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث توجه الحارث بن مرة العبدى في آخر سنة ثمان وثلاثين ومعه ألف مقاتل، وقد واجه عشرين ألفا من أهل القيقان في معركة دامية انتصر فيها المسلمون وأسروا آلافا من الأعداء .

وهكذا رأينا ما قام به هذا الجيش من أعمال بطولية ، حيث ثبتوا بشجاعة نادرة أمام جيش يبلغ ضِعْفُهُم عشرين مرة ومع ذلك لم يفروا وواصلوا القتال حتى نصرهم الله تعالى على عدوهم وظفروا بذلك العدد الكبير من الأسرى .

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ٦٠٧ .

وهذا مثل يضاف إلى بطولات المسلمين العظيمة في الشبّات
واحتمال الشدائد .

ولكن هذا القائد البطل قد استشهد هو وعدد من جيشه في معركة
أخرى لقلّة جيشه أمام جيش الأعداء وذلك في عام اثنين وأربعين^(١) .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب لعبد الله الطرازي ١/ ١٣٥-١٣٦ ،
فتوح البلدان / ٦٠٧ - ٦٠٨ .

– الجهاد في السند في عهد معاوية رضي الله عنه –

كانت في هذا العهد محاولات أخرى لفتح بلاد السند وجرت فيها معارك بين المسلمين والكفار وقد تولى القيادة والإمارة على مافتح من بلاد السند كل من :

راشد بن عمرو الجديدي سنة ٤٢ هـ .

عبد الله بن سوار العبدي سنة ٤٣ هـ .

المهلب بن أبي صفرة سنة ٤٤ هـ .

عبد الله بن سوار العبدي مرة أخرى سنة ٤٥ هـ .

سنان بن سلمة بن المحبق سنة ٤٨ هـ .

راشد بن عمرو الجديدي مرة أخرى سنة ٤٨ هـ .

سنان بن سلمة بن المحبق مرة أخرى سنة ٥٠ هـ .

عباد بن زياد بن أبيه سنة ٥٣ هـ .

المنذر بن الجارود سنة ٦١ هـ .

حرّي بن حرّي الباهلي سنة ٦٢ هـ .

وكان النصر في أكثر المواجهات الحربية حليف المسلمين ، كما أنهم أصيبوا في بعضها (١).

ولقد سطر التاريخ مواقف عالية لبعض هؤلاء القادة ، من ذلك

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط / ٢٠٥ - ٢١٣ .

فتوح البلدان للبلاذري / ٦٠٨ - ٦١١ .

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ٥٣ / ١ .

ماذكره البلاذري عن عبد الله بن سوار العبدي أنه كان سخيا ، لم يوقد أحد نارا غير ناره في عسكره، فرأى ذات ليلة نارا فقال: ماهذه؟ فقالوا: امرأة نفساء يُعمل لها خبيص، فأمر أن يُطعم الناس الخبيص ثلاثا (١).

ومن ذلك ماذكره خليفة بن خياط عن سنان بن سلمة بن المحبق قال: فحدثنا أبو اليمان النبال قال: غزونا مع سنان «القيقان» فجاءنا قوم كثير من العدو فقال سنان: أبشروا فأنتم بين خصلتين: الجنة والغنيمة، ثم أخذ سبعة أحجار وواقف القوم، قال: إذا رأيتموني قد حملت فاحملوا، فلما صارت الشمس في كبد السماء رمى بحجر في وجوه القوم وكبر، ثم رمى بها حجرا حجرا حتى بقي السابع، فلما زالت الشمس عند كبد السماء رمى بالسابع ثم قال: حم لا ينصرون، وكبر وحمل وحملنا معه فمنحونا أكتافهم فقتلناهم، وسرنا أربعة فراسخ فأتينا قوما متحصنين في قلعة فقالوا: والله ماأنتم قتلتمونا ولاقتلنا إلا رجال مانراهم معكم الآن على خيل بلق، عليهم عمائم بيض، فقلنا: ذلك نصر الله، فرجعنا والله ماأصيب منا إلا رجل واحد فقلنا لسنان: واقفت القوم حتى إذا زالت الشمس واقعتهم؟ قال: كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ (٢).

وكون هذا القائد يتذكر هذه السنة النبوية ويطبّقها دليل على علمه وصلاحه، وهي سنة اختيارية يقدّم العمل بها إذا لم تقتض مصلحة القتال غير ذلك.

(١) فتوح البلدان / ٦٠٨ .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط / ٢١٢ - ٢١٣ .

وموضوع رمي الأحجار لعله أراد بها وسيلة انضباط للجيش حتى لا يقدموا على القتال حتى يرمي الحجر السابع ، والمقصود هو التكبير ولكن لعل بعض أفراد الجيش لا يسمعون التكبير بينما يرون رمي الأحجار .

وكون هذا الجيش نُصر بالملائكة عليهم السلام دليل على صلاح القائد والجنود وأنهم قد بذلوا كل طاقتهم في الاستعداد للمعركة والقتال ، ولكن الأعداء كانوا فوق إمكاناتهم فنصرهم الله تعالى بجنود من عنده ، والملائكة في القتال يقدر الله تعالى أن الكفار يرونهم ليصابوا بالرعب والفشل بينما لا يراهم المؤمنون لكي لا يتكلوا عليهم .

- الجهاد في السند في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد -

نظرا لما حدث في البلاد الإسلامية من الاضطرابات بعد وفاة معاوية رضي الله عنه فإن الفتوحات الإسلامية قد توقفت في بلاد السند، وحينما استقرت أوضاع بلاد الإسلام في عهد عبد الملك بن مروان بدأ النشاط الجهادي في هذا الإقليم حينما تولى الحجاج بن يوسف إمرة العراق والمشرق .

ولاية سعيد بن أسلم الكلابي على السند :

ولّى الحجاج بن يوسف سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي على إقليم مكران الذي تم فتحه من بلاد السند عام خمسة وسبعين، وكان الوضع فيها مضطربا حيث كان يسيطر عليها طائفة من العرب الذين تمردوا على الدولة الإسلامية وانضموا إلى « داهر » ملك السند وهم العلافيون ، وكان يتزعمهم رجلا ن منهن هما معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافى ، وهم يتسبون إلى علاف وهو ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وقد استطاع سعيد بن أسلم أن يسيطر على البلاد ، إلا أن العلافين خرجوا عليه وقتلوه واستطاع محمد ومعاوية العلافيان أن يسيطرا على الحكم في البلاد وذلك في عام ثمانية وسبعين (١).

ولاية مجاعة بن سحر التميمي :

ولّى الحجاج بن يوسف مجاعة بن سحر التميمي على إقليم

(١) فتح البلدان / ٦١١ ، الكامل في التاريخ ٣٦/٤ تاريخ خليفة بن خياط / ٢٩٦ ، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامية للطرازي / ١٥٦ .

مكران عام تسعة وسبعين ، وأسند إليه مهمة القضاء على العلافيين وتثبيت حكم الإسلام في ذلك البلد واستئناف الجهاد لفتح السند، وبعث معه جيشاً قوياً ، ولما أن علم العلافيون بقدومه تركوا البلاد وهربوا إلى داخل بلاد السند تحت حماية « داهر » ملك السند ، ولما وصل مجاعة إلى مكران وفرغ من أمور توطيد الأمن بها توجه إلى « قنديل » ففتح نواحي منها ، ولكنه مالبث أن توفي بعد عام من وصوله إلى بلاد السند (١) .

ولاية محمد بن هارون النمري على مكران :

بعد وفاة مجاعة بن سحر ولّى الحجاج بن يوسف على مكران محمد بن هارون بن ذراع النمري ، وذلك في عام ثمانين للهجرة .

وقد حدث في ولايته أن أهدى ملك جزيرة الياقوت (٢) إلى الحجاج سفينة تحمل مجموعة من النساء المسلمات اللاتي وُكُن في تلك الجزيرة ومات أبائهن وكانوا تجارا ، فأراد بذلك التقرب إلى رجال الدولة الإسلامية ، فعرض لتلك السفينة جماعة من اللصوص في بوارج قرب مدينة الديبل ، فأخذوا السفينة بما فيها، فنادت امرأة منهن وكانت من بني يربوع : يا حجاج ، وبلغ الحجاج ذلك فقال : يالبيك ، فأرسل إلى ملك السند « داهر » يسأله تخلية النسوة، فقال : إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم .

(١) فتوح البلدان / ٦١١ ، تاريخ خليفة بن خياط / ٢٧٨ ، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامية ١ / ١٥٨ .

(٢) وتسمى جزيرة سرنديب وهي سيلان التي أصبحت تسمى سيرلانكا .

فبعث الحجاج جيشاً بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمي لإنقاذ تلك النساء ، ولكن هذا الجيش هزم وقتل قائده .

ثم بعث الحجاج جيشاً آخر بقيادة بُذَيْل بن طَهْفَةَ البجلي وكان شاباً شجاعاً فدارت معركة دامية من الصباح إلى المساء وكان فرس بذيل يهيج من هيئة الفيلة فربط عينيه وقاتل بشجاعة نادرة واستطاع بمفرده أن يقتل نحو ثمانين رجلاً من العدو حتى استشهد وانهمز جيشه ووقع بقيتهم في الأسر حيث ضمَّهم ملك السند إلى سجناء الديبل^(١).



(١) فتوح البلدان / ٦١١-٦١٢ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب للطرازي ١ / ١٦٢ - ١٦٣ .

- حملة محمد بن القاسم وفتح السند -

لما بلغ الحجاج بن يوسف خبر أسر المسلمين في السند ونكبة الجيشين اللذين بعثهما استشاط غضباً وحزن على مصير هذين الجيشين فأقسم على غزو السند بحملة كبيرة وكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بالأحداث المؤلمة في بلاد السند ويستأذنه في بعث جيش كبير لفتح السند وتخليص السجناء من المسلمين والمسلمات فوافق الوليد بعد تردد .

وجهاز الحجاج جيشاً كبيراً في عام تسعة وثمانين ، صرف عليه أموالاً عظيمة وأسند قيادته لمحمد بن القاسم الثقفي^(١) ، وكان الحجاج قد عرف فيه الجِد والشجاعة وحسن الإدارة ، ولقد وُفِّق إلى حد كبير في إدارة ذلك الجيش ثم في إدارة شئون البلاد بعد فتحها كما سيتبين لنا من عرض فتوحاته وسيرة عمله الإداري .

وسار محمد بن القاسم من العراق في ستة آلاف بكامل تجهيزهم وقد أعد الحجاج له مدداً من شيراز فصار حتى وصل شيراز وانضم إليه ستة آلاف آخرون ، فأرسل المنجنيقات والأسلحة الأخرى الثقيلة بحراً مع بعض الجيش إلى ميناء الديبل بقيادة خريم بن عمرو وابن المغيرة وأمرهما أن يسبقاه إلى الديبل وسار هو عن طريق مكران^(٢) .

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، يجتمع هو والحجاج في الحكم - الكامل في التاريخ ١١١/٤ .

(٢) فتوح البلدان / ٦١٢ ، الكامل في التاريخ ١١١/٤ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب / ١٦٤-١٦٧ .

وهكذا رأينا كيف تجهز هذا الجيش بالأسلحة الثقيلة بالمنجنيات التي أصبحت فيما بعد تسمى المدافع ، وهذا دليل على تقدم المسلمين في الاستعداد الحربي ، وسرعتهم في الاستفادة مما وجدوه من ذلك عند الأمم الأخرى ، مع ماأضافوا إلى ذلك من ابتكارات جديدة .

هذا ولما وصل محمد بن القاسم إلى مكران انضم إليه واليها محمد بن هارون النمري مع جيشه المكون من أربعة آلاف حيث أصبح جيش ابن القاسم ستة عشر ألفاً .

بعد ذلك قام ابن القاسم بفتح بعض المدن في أول السند حيث فتح قنْزُور وأرمابيل تمهيداً للهجوم على الديبل التي تعتبر من أكبر مدن السند وميناء البلاد ، ويرجَّح بعض الباحثين أنها هي مدينة كراتشي الحالية .

ثم سار بجيشه حتى وصل إلى الديبل وذلك في يوم الجمعة من شهر محرم عام ثلاثة وتسعين .

ووصلت في الوقت نفسه المراكب البحرية التي كانت تحمل بعض الجنود والأسلحة الثقيلة ، فأمر بحفر خندق حول الجيش وقام بتنظيم أموره حيث أنزل الناس على راياتهم ، ووُضِعَت المجانيق الثلاثة التي تَزَوَّدَ الجيش بها ، وأهمها منجنيق يسمى « العروس » يقوم على القذف به خمسمائة رجل ، فحاصر المسلمون مدينة الديبل وجرت بينهم وبين أعدائهم مناوشات حربية .

ولما بدأ المسلمون بالهجوم بالمنجنيق على الحصن خرج منه رجل وطلب الأمان ، فأعطاه ابن القاسم الأمان ، فذكر لهم اعتقاداً سائداً

عندهم وهو أن بلادهم ستُفتح على يد جنود الإسلام ، وأن الأمان من ذلك بقاء العلم المثبت فوق المعبد وكان معبدهم عظيم الارتفاع وفوقه قبة عليها علم كبير يتدلَّى من الجهات الأربع .

فلما سمع ابن القاسم ذلك الكلام قرر الاستفادة من هذا الاعتقاد فوجه المنجنيق الضخم نحو ذلك المعبد ، وأمر قائد المنجنيق جَعُوبَةَ السلمي بضرب ذلك العلم ووعدته بعشرة آلاف درهم جائزة له إذا أصاب الهدف ، ولكن جعوبة اشترط أن يقطع من طول المنجنيق بقدر مترين ، فقال محمد بن القاسم : إذا لم تنجح فقد ضاعت أهمية آلة المنجنيق ، فقال جعوبة : إذا لم أسقط العلم ولم أكسر قبة المعبد فلتُقطع يدي ، وعندئذ وافق ابن القاسم على قطع المنجنيق بعد حصوله على الإذن من الحجاج ، ثم صوب الرامي منجنيقه فانطلقت القذيفة الحجرية الأولى واسقطت العلم ، ثم أطلق القذيفة الثانية فكسر بها قبة المعبد ، فعند ذلك هاج الكفار وخرجوا فناهضهم المسلمون حتى هزموهم وردوهم .

وأمر ابن القاسم بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وهرب عامل داهر عنها ، واختط محمد بن القاسم للمسلمين بها بيوتًا وبني فيها مسجدًا وأنزلها أربعة آلاف من المسلمين (١) .

وهكذا تم فتح حصن من أهم حصون الكفار في ذلك البلد ، وجَرَى في أثناء ذلك أمور تستحق الوقوف عندها ، منها التنويه بخبرة

(١) فتوح البلدان ٦١٣-٦١٤ ، الكامل في التاريخ ١١١/٤ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/١٦٨-١٧١ .

المسلمين الحربية حيث كان جعوبة المسلمي صاحب المنجنيق واثقاً من إصابته الهدف إلى الحد الذي غامر فيه على ذلك بقطع يده ، وقبل ذلك دقة خبرته بآلته حيث اشترط قطع مترين من طول المنجنيق ليتكفل للقائد بإصابة الهدف .

فله درهم ما أسرع تفاعلهم مع مكتشفات عصرهم !
وما أبرعهم في الاستفادة من قدراتهم في الوصول إلى معالي الأمور !!

لقد آمنوا بالإسلام حقاً وصدقاً ففجّر هذا الدين طاقاتهم ووجههم نحو العلو في الأرض على قواعد الصدق والعدل ، وكان لابد للوصول إلى هذا الهدف العالي من اكتساب جميع الخبرات العسكرية والمدنية من حولهم ثم التفوق على غيرهم في ذلك ، وكان لهم ما أرادوا فكانوا أبرع من الأعداء في استخدام الأسلحة التي توارثها الأعداء كابراً عن كابر .

وهكذا تكون نهضة الأمم وريقها نحو المعالي والتمكين في الأرض .

ومن الأمور التي تستحق الوقوف براعة القائد محمد بن القاسم في اغتنام الفرص المؤدية إلى النجاح ، فما أن علم بعقيدة أولئك الكفار القائمة على اعتقاد حلول الهزيمة بهم مع زوال عَلمهم الكبير حتى غير خطته الحربية وبدأ بقصف ذلك العَلم والقبة التي تحمله ليهزمهم معنوياً قبل أن يواجههم عسكرياً .

وهكذا يجب على القادة أن يتلمسوا مواطن الضعف عند الأعداء

ليوجهوا ضرباتهم من خلال جوانب الضعف، فيجتمع على الأعداء جانب الضعف الذي يهز معنوياتهم ويضعفها إلى جانب قوة المسلمين التي لا يقف أمامها أحد في الغالب .

ولقد كانت هذه العقائد مصدر إزعاج وضعف للكفار أمام المسلمين الأقوياء بعقيدتهم الصافية القوية، فاستفاد المسلمون من ذلك فوائد عظيمة كما سبق لنا في عرض مواقف المسلمين مع الفرس والروم .

وأخيراً وصل محمد بن القاسم إلى السجن الكبير الذي كان ملك السند قد احتجز فيه جمعاً من المسلمين والمسلمات ، بعضهم من التجار ونسائهم ، وبعضهم من أسرى الحرب، ونساء فقدن أولياءهن من التجار الذين هلكوا في تلك البلاد وماحولها، فأفرج عنهم وتركهم فترة للراحة ، ثم أعادهم إلى وطنهم الإسلامي، وحقق ابن مسلم في ذلك إجابة الحجاج حينما قال : يا بليك ، لنداء تلك المرأة المسلمة التي قالت من وراء القضبان : يا حجاج .

وهكذا كان المسلمون أعزةً باعتزازهم بدينهم ، واهتمامهم بأمور إخوانهم المسلمين، فليس من شأن المؤمن الحق أن ينام قرير العين هادئ البال، وأن ينعم بالطيبات والأمن والراحة وإخوانه المسلمون يقتلون ويشردون ويعذبون . وتُملأُ بهم السجون ، وينالون فيها أنواع الإذلال والتعذيب .

ولقد كان الحجاج بن يوسف من قساة القلوب الذين اشتهروا بالظلم والجبروت، ومع ذلك جهز تلك الجيوش لإنقاذ أولئك المسلمين

من أيدي أعدائهم، لأن المسلمين في ذلك الزمن لوعيهم الديني يدركون أن إذلال الكفار للمسلمين يعتبر إهانة للإسلام نفسه، فالمسارعة لإنقاذ المسلمين تعتبر إعزازاً للإسلام بالدرجة الأولى، ورحمة بالمسلمين بالدرجة الثانية .

هذا ولقد توجَّ ابن القاسم أعماله في فتح مدينة الديبل بالعفو عن المشرف على السجن لما شهد السجناء المسلمون بأنه كان يعاملهم معاملة كريمة، فعفا عنه ابن القاسم من باب مبادلة الإحسان بالإحسان، بالرغم من أن أوامر الحجاج تنص على قتله هو وأمثاله، إضافة إلى أنه فوض إليه الإشراف على الأمور المالية في مدينة الديبل .

وكان من نتيجة هذه المعاملة الكريمة من ابن القاسم أن ذلك السجَّان الديبلي أعلن إسلامه (١)، وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة في تاريخ المسلمين الأوائل التي يكون فيها إسلام الكفار بسبب معاملة المسلمين الكريمة لهم .

وإن ما قام به ابن القاسم من تفويض الأمور المالية إلى ذلك الرجل يعتبر لفظة إدارية عالية، تدلنا على ما كان يتمتع به ابن القاسم من خبرة دقيقة في معادن الرجال، فالرجل الذي كان يعامل أعداءه في الدين معاملة كريمة في السجن وهو قادر على ضد ذلك، ثم يسارع إلى اعتناق دين أعدائه لما أدرك أحقيقته وسموه جدير بأن تُسند إليه مهام الأمور .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد الهند والبنجاب ١/ ١٧١ - ١٧٢ ، فتوح البلدان

ووقفه أخيرة في هذه النقطة تدلنا على تمتع القادة المسلمين آنذاك بحرية التصرف، انطلاقاً من مبدأ « يرى الشاهد ما لا يرى الغائب » فالحجاج قد أمر بقتل المقاتلين والمشرفين على سجن المسلمين، ولكن هذا السجن قد شفع له كريم معاملته للمسلمين في السجن، فالاتجاه وارد في الحكم في القضايا من منطلق دراسة الواقع .

فتح مدينة النُّيرون :

لما انتهى محمد بن القاسم من فتح مدينة الديبل اتجه إلى مدينة النُّيرون [حيدر آباد حالياً] ونزل في مواضع من ضواحيها ولم يكن نهر السند يمر به فضاقت الجنود من العطش حتى أمطرت السماء وامتلأت الخزانات بالمياه وشرب جنود الإسلام وحمدوا الله تعالى . .

وهكذا قيض الله جل وعلا ذلك المطر لإنقاذ المسلمين وتقوية قلوبهم حتى يواجهوا أعداءهم بقوة ونشاط ، وهذا مثل من كون الله تعالى مع أوليائه بنصره ومعونته لما يريد بهم من إظهار دينه وإعلاء كلمته في الأرض .

ووصل ابن القاسم بجيشه تلك المدينة بينما وصلت المؤن الثقيلة التي بعث بها مع بعض الجنود على السفن في نهر ساكره .

وحاصر المسلمون تلك المدينة عدة أيام وكان واليها غائباً ، فلما قدم أبرز كتاب صلح بينه وبين الحجاج وفتح المدينة للمسلمين .

ثم حضر بهندركن والي المدينة إلى محمد بن القاسم ومعه الهدايا والتحف فأكرمه ابن القاسم واتَّخذه مستشاراً ووَلَّى على مدينته والياً مسلماً (١) .

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١١١ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧٣ .

وهكذا كان ابن القاسم يعامل المسالمين معاملة كريمة ويستفيد من خبرة من يظهر النصح للمسلمين مع عدم الاعتماد عليه في القرارات النهائية، وتلك منقبة من مناقبه العظيمة التي جعلته يفتح ذلك الإقليم الواسع في وقت قصير، مع ما قام به من ترسيخ أقدام المسلمين هناك وبث الإسلام بين أبناء البلاد .

فتح إقليم سيوستان :

ثم اتجه ابن القاسم إلى إقليم سيوستان وبصحبه بهندركن الوالي النيروني وكان له أتباع بوذيون في ذلك الإقليم فاجتمعوا به وأخبروه بأنهم موافقون على ما جاء في رسالة الحجاج إليه من قوله « كل من طلب الأمان له الأمان » ولكن حاكم ذلك الإقليم رفض الصلح وهو بَجْهرا بن جندر ابن عم الملك داهر ملك السند، فحاصره ابن القاسم وصوب المجانيق نحو مدينتهم لمدة أسبوع ليلاً ونهاراً حتى شعر السكان بالضيق والخوف فتوقفوا عن القتال ، ولما علم الأمير بأن السكان قد يثسوا من المقاومة هرب في المساء من الباب الشمالي وعبر النهر متجهاً إلى منطقة البودھية .

وبعد هروب الحاكم دخل محمد بن القاسم مدينة سيوستان فاتحاً وأعلن أهلها البوذيون منهم الطاعة وعيّن نواباً من أماكن متعددة وجمع الغنائم ماعدا ما يخص البوذيين الذين أعلنوا الطاعة .

ومما هو جدير بالذكر إسلام جماعة كبيرة من البوذيين على يد محمد بن القاسم من أهل جنه في سيوستان ، وقصة إسلامهم مؤثرة حيث أرسلوا مندوباً لهم إلى معسكر المسلمين لمعرفة أخبارهم ، وحين

وصل كان جنود الإسلام قد وقفوا في الصلاة في خشوع مهيب خلف إمامهم محمد بن القاسم فاندھش لمنظرهم ، وأخبر قومه بذلك ، فقالوا: إذا كان العرب هكذا يعبدون الرب ويطيعونه ولا يتركون صلاتهم حتى في أخطر المواقف وهم بهذا الشكل من الاجتماع فلا يمكن لنا مقاومتهم وهذا دليل على صحة دينهم .

واختاروا وفداً من زعمائهم أرسلوهم إلى ابن القاسم وعرضوا له طاعتهم وأعجبوا بأخلاقه ومعاملته فأعلنوا إسلامهم ، ثم عادوا لقومهم فدعوهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً (١) .

وهكذا رأينا عظمة الصلاة وبركتها وتأثيرها القوي على مشاعر من يشاهد لأول مرة المصلين وهم يصلون ، وخاصة إذا كانوا يصلون جماعة .

وإن من أهم عوامل التأثير في الصلاة ماتشتمل عليه من الخشوع القلبي القائم على حضور القلب مع الله تعالى ، والذي يترتب عليه سكون الجوارح وخضوعها لله جل وعلا ، مِنْ وَضْعَ اليَدِ عَلَى اليَدِ حال القيام والنظر الدائم إلى موضع السجود وعدم تحريك الأعضاء إلا بموجب حركات الصلاة .

وإن أبلغ ما في الصلاة من التأثير قيام الجماعة من المسلمين في صفوف منتظمة متساوية خلف إمام واحد ، وتزيد عظمة هذه الجماعة ومنظرها المهيب حين يتضخم العدد فيصل إلى الألوف من المصلين كما هو الحال في تجمعات الجيوش وتجمعات المدن الكبيرة .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧٤ - ١٧٦ .

وإن مما يزيد في إعجاب الأعداء كما هو مذكور في الخبر كون المسلمين لا يتنازلون عن صلاتهم الجماعية حتى في أخرج المواقف وهم واقفون أمام أعدائهم ، وهذا يبين لنا حكمة من حَكَمَ شرعية صلاة الجماعة .

المعركة الفاضلة مع ملك السند :

استمر محمد بن القاسم يتقدم ويفتح المدن صلحا في غالب الأمر حتى وصل إلى جيش الملك داهر وكان بينهما نهر السند ، فأرسل إليه ابن القاسم رسولا يسمى الشامي ومعه مترجم وهو قبلة بن مهترائج الذي كان مشرقاً على سجن الديبل وأسلم على يد محمد بن القاسم ، فلما دخل على ملك السند لم يسجد له تعظيماً حسب عادة أهل السند مع ملكهم ، وكان الملك داهر يعرفه فغضب وقال : لو لم تكن رسولا لقتلتك ، فقال هذا الديبلي : نعم إنني الآن مسلم ولا يصح في الإسلام أن يسجد إنسان لإنسان وإنما السجود لله رب العالمين ، وإن قتلني فإن المسلمين يتقمون لي .

ثم ذكر حديث رسول المسلمين الشامي للملك حيث ذكر له رسالة ابن القاسم إليه بتخييره بين أن يعبر النهر إلى المسلمين أو يتركهم يعبرون إليه بعد أن رفض الدخول في الإسلام ودفع الجزية^(١) . وهكذا رأينا موقفاً عالياً من ذلك الرجل الديبلي الذي أسلم حديثاً حيث تفقه في الدين سريعاً فأدرك التقاليد الجاهلية التي تتعارض مع الإسلام وفهم توحيد الله سبحانه للعبادة والتعظيم فلم يسجد لذلك الملك كما يصنع قومه الكفار ، ثم أظهر اعتزازه بانتمائه

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٠ ، فتوح البلدان ٦١٤ .

للمسلمين حيث أظهر التحدي لذلك الملك بيان عزة المسلم وكرامته عند إخوانه حتى لو كان حديث عهد بالإسلام ، هذه العزة التي من مظاهرها غضب المسلمين لإخوانهم وانتقامهم ممن اعتدى عليهم مهما كلفهم ذلك من أموال ومتاعب .

وهكذا كان المسلم آنذاك يظهر إسلامه بشخصية عالية وعزة متناهية حتى وهو بين أحضان الكفار وعند ملوكهم ، وماذاك إلا لقوة المسلمين وظهور دولتهم على دول الباطل وعدم خضوعهم لأعداء الإسلام .

ولقد كان لهذه الصور القوية التي أبرزت عظمة الإسلام في نفوس المسلمين وقوة تأثيره على سلوكهم الأثر البالغ في جذب الناس إلى اعتناق هذا الدين الحنيف لما يشعُر به المنتمى إليه من عزة وحصانة في الدنيا ومآل سعيد خالّد في الحياة الآخرة .

وقد استشار ملك السند وزيره سياكر فنصحه بالموافقة على عبور المسلمين مسوِّغًا ذلك بانقطاع المؤن والإمدادات عن المسلمين إذا عبروا النهر فيسهل القضاء عليهم ، وكان في جيش داهر قوم من العرب من العلّافيّين بقيادة محمد العلافي ، وهم عرب تَمردوا على دولة الإسلام ولحقوا بملك السند فكانوا يحاربون معه المسلمين ، فاستشار داهر محمد العلافي فأشار بعدم تمكين المسلمين من العبور وعلل ذلك بأنهم أشداء في الحرب وأن لهم هدفين في القتال إما النصر وإما الموت ، وحيث إنهم لا يفرون فمن الصعب على أعدائهم هزيمتهم ، كما أشار بتسليط اللصوص عليهم لنهب الغلات والمواشي والعلف من كل مكان

قريب من المسلمين حتى ينتشر بينهم الجوع والمرض فيتفرقوا ويسهل عند ذلك قتالهم وهزيمتهم .

وقد تحيرَ الملك بين الرأيين فقرر أن يترك الخيار للمسلمين في ذلك، ووقف بجيشه على الشاطئ الشرقي للنهر، وقرر محمد بن القاسم عبور النهر ، وفي هذا الوقت وصل إليه خطابان من الحجاج يأمره فيهما بالتجلد والشجاعة وسرعة العبور من موضع مناسب، ويطلب منه إرسال خريطة للنهر لدراستها وإبداء الرأي .

وفي الوقت نفسه استعد الملك داهر فوقف بجيشه على الشاطئ الشرقي من النهر وأمر بعض قواده بالمrabطة بالسفن في الجانب الذي يسهل منه العبور ليُلجئ المسلمين إلى العبور من المواضع الخطرة، وكان يريد القضاء عليهم وهم في حال العبور .

وقد توقف ابن القاسم عن العبور لمواجهة خطط ملك السند ولأن منطقة سيوسان انتقضت عليه فوجه أحد قاداته بجيش لإعادة فتحها حتى يكون الطريق من خلف الجيش الإسلامي في أمان .

ونظراً لتأخر ابن القاسم في العبور مايقرب من خمسين يوماً ولما قامت به العصابات من سحبِ المؤن والأعلاف والأغذية من حول المسلمين فقد أصيبت خيول المسلمين بالمرض .

وقد اغتتم داهر ذلك الوضع السيء بالنسبة للمسلمين فأرسل إلى ابن القاسم يعرض عليه تقديم مساعدة غذائية في مقابل أن ينسحب المسلمون إلى الخلف ، ولكن ابن القاسم رفض ذلك بشدة وكرر

قولته المشهورة بأنه لن يترك أرض السند قبل أن يرسل رأس داهر إلى الحجاج في العراق .

وهكذا كان قادة المسلمين وجنودهم يتمتعون بالصبر على الشدائد ومصابرة الأعداء حتى ينزل عليهم الفرج من الله تعالى ، ولقد نال المسلمون بالصبر الطويل نتائج معارك طال مدتها واكتنفتها الأهوال ، وكان أبرز الفوارق بينهم وبين أعدائهم أنهم أكثر منهم صبرا على حر القتال واحتمال الشدائد .

وجاء الفرج من الله تعالى حيث علم الحجاج بن يوسف بما وصلت إليه حال الجيش هناك فأسرع بإرسال ألفين من الخيول العربية الأصيلة والمواد الغذائية والخلّ المجفف في القطن المحلوج ، وذلك للطعام والدواء .

كما أن الحجاج قام برفع معنوية محمد بن القاسم حتى لا يضعف أمام تلك الأهوال حيث عينه واليا على بلاد السند كلها وفوض إليه الأمور ليتصرف كيف شاء ، ولكنه في الوقت نفسه حذره من الصلح وشجعه على عبور النهر والقضاء على داهر مهما كلفه ذلك ، وأشار عليه بأن يعبر النهر من منطقة « بت » حيث يقل العرض والماء ويسهل العبور ، وذلك بعد دراسته لخارطة البلاد ، ونصحه أيضًا ببناء جسر على الماء من القوارب لكسب الوقت في العبور ومجابهة الأخطار .

وهذا موقف يذكر للحجاج بن يوسف حيث كان وراء ذلك الانتصار الباهر في بلاد السند وفي غيرها من بلاد المشرق .

هذا وقد رتب محمد بن القاسم الخطط الحكيمة لعبور النهر حيث

كان يدرك جيداً أن خطة الملك داهر أن يقضي على جيشه أثناء العبور ، فأرسل فرقة من ستمائة فارس بقيادة سليمان بن نبهان القرشي نحو الحدود الغربية لمدينة راور حتى يمنع الأمير جيسيه بن الملك داهر من التحرك وقت عبور الجيش ، وأرسل فرقة من خمسمائة فارس لمراقبة طريق منطقة كنداره لمنع وصول الإمدادات لجيش داهر ، وأمر فرقة ثالثة بقيادة كبار التكاكراة من أهل المنطقة للوقوف في جزيرة بتّ للدفاع ، وفرقة إلى جيبور قرب راور لمواجهة جيش داهر في خليج يقع بين روار وجيبور ، وأمر بهندركن الحاكم النيروني الذي اتخذه مستشاراً له بجمع الغلة وتوفير العلف للجيش استعداداً للعبور .

بعد هذا الاحتياط الكافي قرر المسير نحو الشاطئ ثم العبور وأرسل أمام الجيش فرقة استطلاعية ، ووصل بجيشه إلى الشاطئ بأمان فأمر بإحضار المراكب لي عمل منها جسراً يتم العبور عليه وكان قد أمر بتعبئتها بالرمال والأحجار لتثبت في النهر ثم أمر بتسميرها بالألواح الخشبية حتى تم عمل الجسر ، ثم أمر الفرق الفدائية بالتوجه بسفنهم إلى جهات متعددة لحماية الجيش أثناء العبور ، وزحف الجيش الإسلامي فوق المراكب ليلاً بإتقان وسرعة وحذر حتى تم عبورهم إلى الشاطئ الشرقي .

كل ذلك والملك داهر يغط في نومه في عاصمته ، وكان قد انشغل باللهو والصيد ولعب الشطرنج اعتماداً على نجاح خططه التي دبرها لإبادة المسلمين أثناء محاولات العبور التي يبدو أنها كانت صعبة للغاية لولا عناية الله تعالى ثم التدابير المحكمة التي خطط لها ابن القاسم ثم نفذها بتوجيه من الحجاج بن يوسف .

وما أن وصل المسلمون إلى الشاطئ الشرقي حتى بادروا بالهجوم ليلاً على قوات الملك داهر المرابطة فانزعجوا وانهزموا، وهرب قواد الملك إلى العاصمة وأخبروا الملك داهراً بالخبر فانزعج لذلك وكاد يفقد وعيه^(١).

وهكذا نجحت خطط المسلمين بقيادة أميرهم الشاب محمد بن القاسم الشقفي لاعتمادهم قبل كل شيء على الله تعالى وشعورهم القوي بالمسئولية المنوطة بهم وانصرافهم إلى الجد في كل أمورهم واغتنام كل الفرص المتاحة لهم ، بينما فشلت خطط الملك داهر التي اعتمد فيها على مجرد الرأي والتدبير والخبرة الحربية ، وقد حمله بعده عن الله تعالى واعتماده الكامل على خطئه . . حمله ذلك على الغرور والغفلة وإضاعة الفرص المناسبة حتى داهمه الجيش الإسلامي وهو في لهوه وغفلته .

ولما علم ملك السند داهر بما حل بذلك الجيش بعث جيشاً آخر بقيادة محمد العلافى وهو الذي سبق أن ذكرنا أنه وجماعة معه من العرب المتمردين على دولة الإسلام ، فبعثه ملك السند لخبرته بقتال العرب، ولكنه ما أن واجه جيش المسلمين حتى رموه بالسباب وعيروه بالخيانة حتى انهزم وتقهقر إلى الورا .

فلما علم بذلك ملك السند أرسل جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الأمير جيسيه فخرج بجيشه ومعه عدد من الفيلة المقاتلة ، ووجه له ابن

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨١-١٨٦، فتوح البلدان/ ٦١٥، الكامل في التاريخ ٤/ ١١١ .

القاسم جيشاً بقيادة عبد الله بن علي الشقفي الذي حارب بشجاعة وقتل كثيراً من جنود العدو وقام بهجوم خاطف على قلب الجيش السندي وحاصر القواد وقتل معظمهم ، فهرب الأمير جيسيه من المعركة وانتصر جيش الإسلام .

ولما علم الأمير « راسل البوذي » أحد كبار القادة والحاكم الجديد لمنطقة بتّ أن الأمير جيسيه انهزم وفر هارباً أدرك أن الغلبة للمسلمين ، فأرسل مبعوثاً إلى محمد بن القاسم بأنه يريد المبايعة والانضمام إليه ، وطلب منه أن يرسل جيشاً صغيراً لأخذه أسيراً إليه في أثناء توجهه إلى الملك داهر حتى لا يلومه قومه ، فخرج راسل من المدينة وولّى والده عليها وطلب منه أن يستسلم للمسلمين إن قدموا عليه ، وأرسل محمد بن القاسم جيشاً من الفرسان وأسروا راسل فعاهد على الولاء والعمل تحت راية الإسلام .

وهكذا استسلم حاكم هذه الولاية وعاهد على العمل مع المسلمين كما فعل ذلك قبله حاكم الولاية السابق وحكام آخرون ، وهي ظاهرة غريبة لم تقع بهذا الشكل في سائر الفتوحات العالمية ، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى ما كان يتمتع به حكام المسلمين وأمراؤهم في الغالب من العدالة والمواساة لمن تحت أيديهم من المسئولين والرعية ، وكان ابن القاسم مثالا لهذه الأخلاق الكريمة فاجتذب بسمو أخلاقه والتزامه بأداب الإسلام أولئك الأمراء ، واستفاد من خبرتهم في بلادهم كثيراً حيث ضمهم إلى جيشه وجعلهم مستشارين .

وأمر آخر لعله كان دافعاً لهذا التوجه بهذا الشكل الظاهر من

أولئك الأمراء ، وهو كونهم جميعاً يعتنقون الديانة البوذية بينما كان داهر برهمي المذهب ، وكان البراهمة يعيشون في كبر وخيلاء ويحتقرون الناس من حولهم ويعتقدون أنهم آلهة وأن الناس عبيد لهم ، فولد ذلك في نفوس الناس كراهية لهم وحقداً عليهم ، فلما سنحت الفرصة للأمراء البوذيين في التخلص منهم اغتتموا ذلك ورأوا في المسلمين خير بديل عنهم لما رأوا فيهم السماحة والعدل والتواضع على خلاف ما ألفوه من البراهمة .

واغتنم ابن القاسم هذه الفرصة فمنح هؤلاء ثقة كبيرة وأكرمهم وأشعرهم بوجودهم كأمرأء لهم مكانتهم بين قومهم فأفاد الجهاد الإسلامي فائدة كبرى بكسب رأي هؤلاء وخبرتهم ومساندتهم جيش المسلمين بالجنود والعتاد الحربي .

بعد ذلك استعد ابن القاسم لقتال الملك داهر ، فانتقل إلى موضع يقال له نارائي ومعه الأمير راسل والأمير موكة ، وكان الملك داهر يعسكر في موضع قريب منه يقال له قاجيجاق وكانت بينهما بحيرة ، وقد أشار راسل بضرورة عبور البحيرة وأحضر القوارب ، ونقل عليها الجنود في ظلام الليل إلى داخل خليج هناك ، ثم تقدموا قليلاً نحو مدينة جيور حتى وصلوا عند نهر دوهاواه الذي تقع عليه قرى كثيرة ، فعسكروا هناك ليسهل القيام بالهجوم على الملك داهر من الأمام والخلف .

وعلم داهر بوصول المسلمين إلى جيور فترك أسرته في قلعة زاور وتحرك بجيشه ووقف على بعد فرسخ من المسلمين ، وتقدم محمد بن

القاسم ووقف على بعد نصف فرسخ ، واستعد الجيشان للحرب المصرية .

وبدأت الحرب بتقابل فرق من الجيشين لمدة أسبوع ، بدأت بعدها الحرب الشاملة التي انتهت بعد ثلاثة أيام بانتصار المسلمين وكان النصر في جميع تلك اللقاءات لجيش المسلمين .

ولما رأى الملك داهر تلك النتائج السيئة لجيوشه قرر أن يخوض المعركة النهائية بنفسه ، فجمع قواته كلها التي بلغت مائة وعشرين ألفا يقودها خمسة آلاف فارس من أبناء الأمراء والقواد المشهورين ، ومعهم عشرة آلاف فارس بكامل تجهيزهم وثلاثون ألفاً من المشاة المجهزين بالدروع والسهام والرماح إلى جانب عشرات الألوف من أفراد القبائل المختلفة ، يتقدمهم مائة من الفيلة الرهيبة التي كانت أخطر ما يواجهه المسلمون من سلاح الأعداء .

ونظّم ابن القاسم جيشه فجعل على المقدمة عطاء بن مالك القيسي مع جيشه من الفرسان ، وجعل جهم بن زحر البجلي مع جيشه من الفرسان على الميمنة ، وجعل ذكوان بن علوان البكري على الميسرة ونباتة بن حنظلة الكلابي في المؤخرة ، وبقي هو في القلب ومعه محرز بن ثابت وبعض القواد من العرب والسند ، وأعلن في الجيش بأنه إذا قُتل في الميدان فالقيادة العليا لمحرز بن ثابت .

وبدأت المعركة فتقدم محرز بن ثابت بفرقته من القلب فاستشهد

وتقهقرت فرقته، وكذلك تقدمت فرقتان فانهمزتا بسبب الهجوم الشرس من الفيلة (١).

هذا وقبل الحديث عن المعركة فإنه لابد من الإشادة بموقف محرز ابن ثابت الذي ولاه محمد بن القاسم قيادة الجيش من بعده فيما لو استشهد.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية الدنيوية التي يتسابق الناس فيها على التسلق نحو درجات المجد والشهرة وما يتبع ذلك من الحصول على الأموال والتمتع بطيبات الحياة . . إذا نظرنا إلى ذلك فإن الحال تقتضي أن يحاول هذا القائد البديل أن يحمي نفسه من بأس الأعداء بمجموعة من الحراس حتى يُبقي على حياته ليتبوا ذلك المنصب المرتقب، ولكن المسلمين الصادقين من أمثال محرز بن ثابت تهون عليهم أنفسهم وحياتهم الدنيا بما فيها من مجد ورفعة في سبيل إعزاز الدين وإعلاء كلمة الله تعالى ، فلذلك كان أول مغوار فدى أمته بنفسه حتى خرَّ صريعاً تحت أقدام الفيلة وخيول الأعداء ، فله درُّهم ما أكبر همتهم وما أبعد غايتهم !

ولما رأى محمد بن القاسم ما أصاب بعض المسلمين من الانهزام والتقهقر أمام جيش الفيلة ناداهم بأعلى صوته وحثهم على الصبر والجهاد فقاموا بحملة قوية على الجيش السندي وقتلوا تسعة من الفيلة

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٧ - ١٩٠، فتوح البلدان/ ٦١٥ .

فتشجعوا بذلك ، وأخذ الكفار يتقهقرون إلى الخلف حتى توقف القتال عند المساء .

وانتهى اليوم الأول من هذه المعركة الكبرى ، وقد أبلى المسلمون بلاء حسناً وأخذوا فيه خبرة كافية عن سلاح الأعداء وقوتهم وتخطيطهم الحربي .

ولقد كان لابن القاسم موقف يذكر حيث كان رابط الجأش ثابت الجنان بالرغم من صغر سنه ، فلم يتزعزع حينما رأى المسلمين يتفرقون ويتضعضون أمام الفيلة ، بل ثبت وناداهم بقوة ليجتمعوا وليبذلوا طاقتهم في قتال عدوهم .

وإن توفّر هذه المقدرة الفائقة عند ابن القاسم . . من الشجاعة الفائقة ودقة التخطيط وحسن التدبير والثبات عند المواقف الصعبة مع أنه كان في سن الشباب دليل واضح على تفوق المسلمين في مجال التربية ، وأنهم كانوا يهتمون بتأهيل أبنائهم منذ الصغر للمجالات التي ينشُدون تفوقهم فيها ، إذ أن مثل هذه المقدرة لا تتوفر في سن مبكرة بغير الإعداد التربوي الجاد المنظم .

ولقد كان جديراً بقول الشاعر فيه :

إن السماحة والمروءة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة^(١) ياقربَ ذلك سُودداً من مولد
كان هذا اليوم الأول من المعركة يوافق يوم الإربعاء التاسع من

(١) أي لسبع عشرة سنة ، وذلك محمول على ابتداء أمر إمارته وقيادته حيث تولى إمارة خراسان عام ثلاثة وثمانين للهجرة .

رمضان المبارك من عام ثلاثة وتسعين للهجرة كما ذكر المؤرخون .
وفي يوم الخميس الموافق للعاشر من رمضان استؤنفت المعركة بين
الطرفين ، وقد حصل تغيير لبعض مواقع القادة من الجانبين حسبما
تقتضيه ظروف المعركة .

ولقد كان مما خرج به الأعداء في اليوم الأول أنهم أدركوا خطورة
سلاح الفيلة على المسلمين فعزموا على تركيز هجومهم بالفيلة في
اليوم الثاني ، كما أن المسلمين أدركوا ذلك فعزموا على توجيه
اهتمامهم في القضاء على تلك الفيلة ، وكان مع المسلمين ثلاثة
منجنيقات يحركها ويرمي بها تسعمائة من الرماة ، فقسم ابن القاسم
هؤلاء إلى ثلاث فرق وأمرهم بأن يشعلوا النيران وأن يوجهوا قذائفهم
المشتعلة بالنفط نحو الفيلة والمجموعات التي تقودها .

وبدأ المسلمون يومهم ذلك بعد صلاة الفجر بسماع خطبة حماسية
ألقاها قائد المسلمين الشاب ، حثهم فيها على النصر والثبات ومواصلة
القتال مهما كانت الظروف ، وذكرهم بالله تعالى وما أعد له لعباده
المؤمنين الصابرين .

وبدأت المعركة بهجوم فرقة من مائتي فارس من المسلمين بقيادة
نبهان أبو فقيه القشيري ، وتقدم لها فرقة من السند فانهزموا أمام
المسلمين وقتل كثير منهم ، وكانت بداية طيبة رفعت معنوية المسلمين .
وتلا ذلك اشتباك بين فرق من الجيشين ، وبدأ الرماة بالقذف
بالسهام المشتعلة بالنفط من المجانيق على قلب الجيش السندي الذي

تصدّرتُه الفيلة ، فحصل للسند فزع واضطراب ، وتفرّق جمعهم قليلا حتى تمكن المسلمون من الدخول في جيشهم .

وكان أحد قادة المسلمين وهو « الشجاع الحبشي » قد أقسم أن لا يذوق الطعام إلا إذا هجم على فيل داهر ، وكان قائد الفيلة ، وهو فيل ضخم أبيض اللون ، فربط الحبشي عيني فرسه حتى لا يهيج من الفيلة وهجم على الفيل الأبيض وجرحه ، فهاج وتأثرت بذلك بقية الفيلة وأخذت تصيح وتميل شمالا ويمينا وأحدثت خللا في توازن الجيش ، ولكن داهر استطاع أن يرمي الحبشي بسهم قاتل فوقع شهيدا رحمه الله تعالى (١) .

وهكذا قام هذا الفدائي المسلم بعمل يقربه من الله تعالى وأقدم على عمل يرجو فيه الشهادة والإثخان في العدو ونصر المسلمين فتحقق له ما أراد .

وهذا من النماذج الكثيرة التي لا تتوفر لدى غير المسلمين إلا بنسبة قليلة وبدافع من تعويض مادي كبير أو منصب رفيع يرجو فيه صاحبه أن يُحظى بالنجاة ليتمتع بذلك العوض ، وهذا الرجاء يُضعف من مقدرة الفدائي وإقدامه كثيرا لأن الهمّ الكبير الذي يستولي عليه هو أن يدافع عن نفسه حتى يظفر بالحياة التي علّق عليها الآمال السعيدة ، بينما يندفع المسلم بكل طاقته في الهجوم لعله يظفر بالشهادة ليُحظى بالحياة السعيدة في الآخرة ، حيث يعلق عليها كل آماله السعيدة ،

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٢-١٩٤ ، فتوح البلدان/ ٦١٥ .

وفرق كبير بين من يقاتل ليُقْتَلَ وبين من يقاتل ليبقى على قيد الحياة .
وهكذا كانت جيوش المسلمين في ذلك العصر الذهبي إلى جانب كونها تضم القادة الأكفاء الذين يقدرّون الكفاءات ويستشيرون أهل الرأي ويعيشون قضيتهم بكل أحاسيسهم فإنها كانت تضم الجنود المخلصين الذين جعلوا قضيتهم الكبرى هي نصر الإسلام والمسلمين وإغاظة الأعداء ودحر الجبابرة والظالمين .

وفي أثناء القتال توجهت طائفة من قواد السند وجنودهم نحو محمد بن القاسم طالبين الأمان فأعطاهم الأمان وأعلنوا إسلامهم أمامه ، وكانت هذه أول مجموعة كبيرة من أتباع الديانة البرهمية من قواد الملك داهر وجنوده تدخل الإسلام برغبتها في أيام الفتوحات ، وقد عرض هؤلاء القواد والجند على محمد بن القاسم خطة عسكرية ليثبتوا صحة إيمانهم وولائهم ، بأن يأذن لهم أن يقوموا بمهاجمة مؤخرة جيش داهر على غفلة على أن يقوم الجيش الإسلامي في نفس الوقت بهجوم شامل من الأمام ، ووافق محمد بن القاسم على الخطة ، وجعل مروان بن أشحم اليمني وقيم بن زيد القيسي عليهم ، ففَجَّأُوا العدو بالهجوم الخاطف العنيف من الخلف ، وكذلك من الأمام ، فأذهلوهم بذلك وقُتِل كثير من جيشهم فهاجوا وحميت المعركة (١) .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تدل على عزة المسلمين وقوة تأثيرهم

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٣ - ١٩٤ ، فتوح البلدان/ ٦١٥ .

على أعدائهم ، فإن هؤلاء انفصلوا عن جيش قومهم ، ولم يكتفوا بمجرد الانضمام إلى جيش المسلمين بل أعلنوا إسلامهم وبرهنوا على صحة عقيدتهم بالخطة الحربية الرائعة التي اقترحوها على قائد المسلمين ، وهذا دليل واضح على أن الدافع لهم كان إعجابهم بالإسلام وصدق توجههم نحوه ، إذ لو كان الدافع مجرد عداوة بينهم وبين قومهم لاكتفوا باللجوء إلى جيش المسلمين أو إعلان الانضمام إليهم في القتال ولم يتخطوا ذلك إلى التخلي عن دينهم والدخول في دين الإسلام .

وكان من آثار ثبات المسلمين الرائع وما قام به بعضهم من مواقف فداية ، وماتم من إسلام بعض أهل السند وانضمامهم إلى جيش المسلمين . . كان من آثار ذلك أن جيش السند أخذتهم الحمية فشددوا هجومهم على المسلمين من كل جانب ، وحملوا حملة جماعية في محاولة مستميتة لكسب نهاية المعركة ، وكان لتلك الحملة المركزة أثر في اضطراب جيش المسلمين بعض الوقت ، فلما رأى ذلك قائد المسلمين محمد بن القاسم الثقفي نادى أبطال المسلمين وقادتهم بأسمائهم حتى اجتمعوا ثم علت أصواتهم بالتكبير حتى ملأت الآفاق وكانت على الأعداء كالصواعق المرسلة ففزع الجيش السندي وتحيروا ، وحمل عليهم المسلمون حملة صادقة حتى قتلوا عدداً كبيراً من جنود العدو وقادتهم وبعض الفيلة حتى لم يبق مع داهر من فرسانه من أبناء الأمراء والقادة الكبار إلا ألفاً من خمسة آلاف ، وهو دليل على قوة إتيان المسلمين بجيش عدوهم .

وفي الوقت الذي اشتدت فيه حملة المسلمين أمر ابن القاسم رماة المنجنيقات بأن يصوبوا سهام النار المشتعلة بالنفط نحو هودج فيل داهر، فأصيب الهودج بالحريق، وعطش الفيل من الحرارة فاتجه به داهر نحو النهر ليسقيه وليطفئ النار، وكان حوله بعض القادة لحمايته، فطاردهم المسلمون وأمطروهم بوابل من السهام ثم اشتبكوا معهم في قتال شديد، ونزل داهر من فيله وقاتل حتى قتله عمرو بن خالد الكلابي، وأسرع بعض قادة السند فأخفوا جثته في خليج راور، ثم توقف القتال عند المساء بانتصار حاسم للمسلمين (١).

فتح مدينة راور :

بعد انتهاء المعركة الفاصلة مع جيش السند ومقتل ملكهم داهر توجه المسلمون بقيادة محمد بن القاسم لفتح مدينة راور التي جرت حولها تلك المعركة الحاسمة، وقد دخلها المسلمون إلا أن قلعتها بقيت محصنة بفرقة كبيرة من الجيش السندي وعلى رأسها الأمير جيسيه ولي العهد، وقد قرر جيسيه مواصلة القتال، لكنه أخيراً قبل مشورة وزيره سياكر ومحمد العلافى بترك القلعة والسير إلى مدينة برهمناباد لقوة تحصينها، وقررت زوجة الملك داهر « بائي » البقاء في القلعة مع النساء وفرقة من القادة والجيش للدفاع عنها.

وقد توجه محمد بن القاسم إلى القلعة فرفض أهلها التسليم، فأمر بضربها بالمنجنيقات، وقسم جيشه قسمين : قسم يقاتل بالنهار

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٤ - ١٩٦، وانظر البداية

والنهاية باختصار ٩٢/٩.

بالسهام والرماح ، وقسم يقاتل بالليل بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنيقات حتى هدمت الأبراج .

ولما رأت الملكة « بائي » أن المسلمين كادوا يفتحون القلعة جمعت الأميرات وأحرقن أنفسهن بالنار ليلحقن بأزواجهن تطبيقا للتقاليد الدينية السائدة بتلك البلاد .

وتم فتح القلعة ودخلها محمد بن القاسم وكان بها ستة آلاف جندي فأمر بقتلهم لرفضهم الاستسلام (١) .

وفي هذا الخبر مثل من تأثر العقائد الجاهلية على أصحابها بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، فهؤلاء النسوة اللاتي أحرقن أنفسهن قد تعجلن عذاب النار في الدنيا ، ولو كان في اعتقادهن أنهن إن فعلن ذلك سيخلدن في الآخرة في نار جهنم وأنهن لو دخلن في الإسلام سيخلدن في جنات النعيم وينجون من عذاب النار لسارعن إلى الدخول في الإسلام .

فالعقل الرشيد السليم يهدي صاحبه إلى سعادة الدنيا والآخرة، فالذين دخلوا في الإسلام على يد ابن القاسم أصبحوا أمراء وقادة في بلادهم، وهذا من سعادة الدنيا، مع ما ينتظرون من السعادة العظمى في الآخرة .

أما الذين وقفوا ضد دعوة الحق وحاربوا دعائه فقد باؤوا بالخسران والهلاك بأنواع القتل في الدنيا وسيبوؤون في الآخرة بالخلود في نار جهنم .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ١٩٦ ، فتوح البلدان ٦١٦ .

فتح بهرور ودهليّة :

تحرك محمد بن القاسم من راور متوجّها إلى برهمناباد التي تحصن بها جيشه ، وكان عليه أن يفتح مدينتين محصنتين في طريقه إلى برهمناباد وهما بهرور ودهليّة .

فقد توجه أولاً إلى مدينة بهرور وهي على بعد فرسخ من برهمناباد وفيها نحو خمسة عشر ألف جندي ، فحاصرها وقاومه أهلها أياماً فرماها المسلمون بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنيقات حتى هدمت جدرانها وأبوابها وقتل معظم من فيها فدخلها محمد بن القاسم ، وولى عليها حاكماً من المسلمين .

ثم سار إلى مدينة دهليّة وكان بها نحو ستة عشر ألف جندي فحارب أهلها بشدة حتى هرب حاكمها الأمير ديوراج وهو ابن عم داهر ومعه بعض سكانها في الليل نحو بلاد الهند ، فاستولى عليها المسلمون ، وولى عليها ابن القاسم نوبة بن هارون كما فوض إليه الإشراف على حركة السفن في تلك المنطقة (١) .

انضمام الوزير سياكر إلى المسلمين :

قبل فتح برهمناباد كان محمد بن القاسم قد بعث برسائل إلى الأمراء والوزراء يدعوهم فيها إلى الإسلام أو الطاعة مع ضمان الأمان لمن أجاب إلى ذلك ، فلما علم بذلك « سياكر » وزير الملك داهر بعث رجلاً إلى محمد بن القاسم وطلب منه الأمان ، فأعطاه ذلك ، وحضر الوزير إليه ومعه بقية النسوة المسلمات اللاتي كن قد استغثن بالحجاج ،

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٠٠ - ٢٠١ .

فاستقبله محمد بن القاسم بكل تكريم وأهدى إليه هدايا ثمينة، وفوض إليه مهمة الوزارة وصار يستشيريه في أمور الدولة والمهمات الحربية (١).

هذا وإن ما حدث من انضمام هذا الوزير إلى جيش المسلمين مع رفعة منزلته في دولته وما حدث من انضمام بعض أمراء السند كما تقدم يدلنا على أهمية مكارم الأخلاق في سياسة الأمم، فقد كان محمد بن القاسم يتصف بالحكمة والعدالة وتقدير وجهاء البلاد، وإنزال الناس منازلهم، ولقد كان لهذه الأخلاق الكريمة أثر في اجتذاب زعماء السند إلى الإسلام، ولا ينبغي لنا مع ذلك أن نغفل جانب القوة فإن ظهور قوة المسلمين يجعل زعماء البلاد يخضعون لعزتهم ويتيح الفرصة لعقولهم كي تفكر تفكيراً سليماً في مستقبل أمرهم وأمر بلادهم، وإذا كان هؤلاء الزعماء يرون أن قائد أعدائهم قد قرب سياسة بلادهم الذين دخلوا معه وأسند إليهم المناصب المهمة فإن هؤلاء الزعماء لن يفقدوا بإسلامهم مناصبهم التي هي العائق الكبير بينهم وبين الإسلام، والتي من أجلها يحملون جنودهم على حروب لا يعلمون ما هو مصيرها.

فتح إقليم برهمناباد :

تولى الأمر بعد داهر ابنه جيسيه وهو رجل سياسي شجاع ولذلك اهتم ابن القاسم بالقضاء عليه حتى لا يعود إلى حكم بلاد السند وقد كان جيسيه أخذ بمشورة مستشاريه فانتقل إلى بلدة برهمناباد لوجود

(١) المرجع السابق / ٢٠١ - ٢٠٢ .

حصن منيع فيها فتحصن به وجمع إليه قواته من أنحاء السند، وكان معه في ذلك التجمع ستة عشر ألف قائد ومعهم عشرات الآلاف من الجنود.

وقد استفاد قادة السند من تجاربهم مع المسلمين في الحرب فأروا أنه ليس بإمكانهم مهما بلغ عددهم أن يقاوموا المسلمين في الصحراء وجها لوجه، فكان من تخطيطهم أن يتحصنوا بذلك الحصن المنيع وأن يُخرجوا فرقا كبيرة من الجيش لقتال المسلمين فإذا انهزموا لجأوا إلى الحصن.

ولما علم بذلك ابن القاسم سار بجيشه حتى وصل قرب تلك المدينة ، وأرسل رسولا إلى الأمير جيسيه وأهالي برهمناباد يدعوهم إلى الإسلام أو الاستسلام مع دفع الجزية وإلا فإنه سيقاثلهم بشدة، فرفض جيسيه ذلك وقرر الحرب، وعندئذ أمر محمد بن القاسم بحفر الخنادق، ووزع الجيش إلى فرق ووحدات استعدادا للقتال .

ثم بدأت المعارك فكانت تخرج فرقة كبيرة من الجيش السندي مكونة من أربعين ألف جندي فيواجهها الجيش الإسلامي .

ثم تعود منهزمة عند المساء إلى المدينة فتحصن بها ، واستمرت المعارك على هذه الطريقة لمدة شهرين ، ثم توقف القتال بين الطرفين لأن جيش السند قرر التحصن داخل المدينة .

ولقد ساءت حال الجيش الإسلامي لطول مدة الحصار وقلة الموارد الغذائية ، فأرسل ابن القاسم إلى الأمير موكه بن بسايه حاكم منطقة بَتْ يستشيريه في الأمر فأجاب بضرورة طلب قوات أخرى حتى يضطر الأمير جيسيه إلى الجلاء عن تلك المنطقة .

وقد أخذ ابن القاسم بهذا الرأي فكتب إلى نوابه من الأمراء المسلمين على المناطق المفتوحة لِيَمْدُوا الجيش الإسلامي بالعدد الكافي من الجنود ، ووفد عليه أولئك الأمراء وعلى رأسهم حاكم منطقة بت ، فلما رأى الأمير جيسيه الجيوش قادمةً لإمداد الجيش الإسلامي أصابه الرعب وانسحب من تلك المدينة بأسرته وذهب إلى منطقة جيتور على الحدود الهندية ، بينما افترق عنه محمد العلافى العربى المتمرد على دولة الإسلام الذى سبق ذكره هو ومن معه من العرب فاتجهوا نحو بلاد كشمير .

وهكذا شتت الله تعالى شمل الأعداء حيث أوقع في قلوبهم الرعب وخالف بين آرائهم .

ومن المواقف التى نلاحظها في هذه المعارك مقدرة المسلمين الفائقة على الصبر على الشدائد ومصابرة الأعداء بالرغم من كون الأعداء متحصنين في بلادهم المنيعه .

ومن تلك المواقف مقدرة محمد بن القاسم العالية في كسب القلوب واكتساب الأنصار من غير المسلمين وعدم الاعتداد بالرأي حيث استشار حاكم منطقة بت السندي وأخذ برأيه فكان ذلك سبباً في جلاء أعدائه وتفرقهم ، وقد كان ماشتهر به ابن القاسم من العدل والحكمة ودماثة الخلق سبباً مباشراً لذلك الولاء الذى تم بينه وبين حكام السند الذين خضعوا لحكم الإسلام .

وبعد خروج جيسيه من مدينة برهمناباد تم فتحها وإخضاعها لحكم المسلمين وقام ابن القاسم بتنظيم أمورها بما يتفق مع حكم

الإسلام، وكان رحيمًا عادلاً مع الأهالي الذين لا يحملون السلاح ضد المسلمين .

وبعد أن تم فتح هذه المدينة المحصنة بقي محمد بن القاسم فترة من الزمن يقوم بتنظيم أمور البلاد الإدارية فعين حكاماً من المسلمين العرب على مناطق السند وكان اختياره لأولئك الأمراء مبنياً على كفاءتهم الإدارية والحربية مع النظر إلى احتياج البلاد لتلك الكفاءات حسب تنوعها ، ولذلك كان ينقل بعض الأمراء إلى مناطق يرى أنها أحوج إليهم من مناطقهم الأولى^(١) .

ولاشك أن توفر الرجال الأكفاء مع ابن القاسم كان له الأثر الكبير في نجاحه في أعماله الحربية ، وأعماله الإدارية إلى جانب ما تحلى به هذا القائد من الحكمة ورجاحة العقل وحسن التدبير فاستطاع بهذه الأخلاق العالية أن يوجه طاقات الرجال الأكفاء معه بتعيين الرجل المناسب في المكان المناسب .

احتواء القبائل المتوحشة :

ولما انتهى من تنظيم أمور البلاد الإدارية تفرغ للتفكير في القبائل المتوحشة مثل قبيلة الزط التي انصرف أفرادها للأعمال اللصوصية حيث كانوا يخيفون الأمنين ويقطعون السبل فاستشار في أمرهم كلاً من الوزير السندي سياكر وموكة حاكم منطقة بت فذكرا له أن هذه القبائل لا يمكن أن تخضع إلا بالقوة وأن حكام السند كانوا يعاملونهم

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢٠٢ - ٢٠٥ ، فتوح البلدان للبلاذري / ٦١٦ ، الكامل لابن الأثير ٤/ ١١٢ .

بالقسوة والإذلال وكانوا يلزمونهم بلباس معين حتى يحذر الناس منهم ، وكانوا إذا قبضوا على أحدهم متلبسا بالسرقة حكموا عليه وعلى جميع أفراد أسرته بالحرق .

ولما سمع ذلك منهم ابن القاسم أخذ تلك القبائل مؤقتًا بالحزم ، وأمر عليهم أفضل قادته وهو خريم بن عمرو المدني المعروف بالتقوى والشجاعة والسياسة ، ثم بدأ يضم أفراد هذه القبائل مع الجيوش الإسلامية ، فلما رأوا كرم الوفاة وحسن المعاملة ارتفع مستواهم الفكري ودخل كثير منهم في الإسلام وتحسنت أخلاق من بقي منهم ، ولم يبق على الطباع الشرسة والوحشية إلا الذين اعتصموا بمناطقهم ولم يختلطوا مع المسلمين (١).

وهذا موقف يذكر لمحمد بن القاسم وقادته العظماء وعلى رأسهم خريم بن عمرو المدني الذي أوصى الحجاج محمد بن القاسم بأن يلازمه دائماً لفضله ودهائه وشجاعته ، حيث تحول كثير من أفراد هذه القبائل المتوحشة إلى أعلى المستويات الحضارية. فدخل أكثرهم في الإسلام ، ومن لم يدخلوا فيه تأثروا بأخلاق المسلمين ومعاملتهم الكريمة ونبذوا ماكانوا ألفوه من العادات الرذيلة .

فتح مدينة أرور :

بعد أن قام محمد بن القاسم الثقفي بفتح برهمناباد الحصينة وبعد أن أخضع القبائل السندية المتمردة كتب إلى الحجاج بن يوسف بذلك فأمره بالتوجه نحو عاصمة السند أرور ثم إلى مدينة الملتان لأنهما من

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ٢٠٢/١ - ٢٠٨ .

أقوى القواعد الحربية في البلاد وهما مقر عظماء السند .

وقد توجه ابن القاسم بجيشه نحو العاصمة في محرم من عام أربعة وتسعين وفي طريقه إليها فتح مدينة منهل وهراور وبسمد وساوندري وقد صالح أهل هذه المدن وأسلم بعض أهلها .

ووصل ابن القاسم بجيشه إلى العاصمة أرور وعسكر على بعد ميل من قلعتها المحصنة ، وكان أميرها قوفي بن داهر قد حصنها تحصيناً قويا وشجع قواده وجنده على الحرب .

وقد بدأت الحرب واستمرت أياماً إلا أن ابن القاسم اختصر الطريق على المسلمين ، وذلك أن المسلمين لما فتحوا مدينة برهمناباد وقعت الأميرة « لادي » إحدى زوجات الملك داهر في الأسر فأكرمها المسلمون ، فلما كان حصار مدينة أرور العاصمة أرسلها ابن القاسم مع رجال من السند إلى باب المدينة فاجتمع بها بعض زعمائها فأخبرتهم بأنها أرملة داهر وأن الملك قد قتل مع قواده المشاهير، والباقون استسلموا ، وأشارت عليهم بأن يستسلموا للعرب وأن يصلحوهم .

فلما سمع أهل تلك المدينة بمقتل ملكهم وبما يتصف به المسلمون بقيادة ابن القاسم من العدل والتسامح والقوة قرروا قبول الصلح ، ولما علم بذلك الأمير قوفي قرر الفرار مع أسرته ليلاً إلى مدينة جيپور على الحدود الهندية ليبقى مع أخويه جيسيه ودكيه .

وفتح أهل أرور الأبواب ودخلها ابن القاسم صلحاً ، وهكذا نجحت سياسة ابن القاسم في محاولة تأليف قلوب زعماء السند حيث

استفاد منهم كثيراً في إقناع قومهم بالصلح وتجنب القتال كما استفاد من خبرتهم الحربية حيث كان يستشير بعضهم في أموره المهمة .

هذا وقد بقي ابن القاسم بعض الوقت ينظم أمور عاصمة السند الإدارية ، وقد عين « رواح بن أسد » حاكماً عليها وعين على شئون القضاء موسى بن يعقوب بن طائي الثقفي وبنى فيها مسجداً جامعاً ، وقد كان تجاوب أهلها سريعاً مع الإسلام حيث أسلم بعض سكانها آنذاك (١) .

فتح مدينة « باتيه » :

بعد ذلك اتجه محمد بن القاسم لمدينة « باتيه » وكان حاكمها « ككسه » ابن عم الملك داهر ، وقد اشترك معه في المعركة الأخيرة ، ثم عاد إلى « باتيه » ولما علم بقدوم محمد بن القاسم أرسل إليه مندوبه واستقبله بالهدايا والضمانات والرهائن وعرض الصلح معه ، فقبل محمد بن القاسم ذلك منه ، وكان ككسه حكيماً فاتخذ محمد ابن القاسم مستشاراً له كما فوض إليه الأمور المالية في بلاده ، وقدمه على جميع قادة السند الذين كانوا معه ، وقد أخلص هذا الأمير للمسلمين ثم دخل في الإسلام على يد محمد بن القاسم ، وكان بينهما ثقة كبيرة وانتفع المسلمون به في حروب السند الأخيرة (٢) .

وهكذا مارلنا نجد أمثلة حية لهذه الظاهرة التي تميزت بها فتوح

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ٢١١/١-٢١٣ ، فتح

البلدان/٦١٧ ، الكامل في التاريخ ١١٢/٤ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ٢١٣/١ .

بلاد السند حيث أقدم على الإسلام عدد من زعمائها وأهلها وبقي عدد من زعمائها مخلصين للمسلمين حتى مع بقائهم على دينهم .

وهذا شاهد واضح على أن سلاح القوة الذي ظهر به المسلمون ماهو إلا مفتاح يَلْجُونَ منه بلاد الكفر والضلال ، أما مفاتيح القلوب فقد كانت بالخشوع المهيب بين يدي الله عز وجل الذي كان يظهره المسلمون في الصلاة وخاصة صلاة الجماعة ، وفي الأخلاق العالية والمعاملة الكريمة التي كان المسلمون يتحلون بها حتى مع أعدائهم ، فبينما نجد الأعداء يتمنون أن يقع المسلمون بين أيديهم ليحرقوهم ، إذا بهم يقفون أمامهم مشدوهين حيارى قد أخذت قلوبهم مما يرون من سمو المسلمين وعظمتهم سواء في علاقتهم مع ربهم أو مع الناس ، ثم لا يلبثون طويلا حتى يعلنوا انتماءهم للإسلام الذي لامس شغاف قلوبهم ووافق فطرتهم وأجاب على استلتهم المحيرة التي كانت قبل ذلك تصطدم بجُدر الوثنية المصمتة التي لا تحير جوابا ولا تحل إشكالا .

فتح مدينة « اسكلنده » :

ثم اتجه ابن القاسم إلى مدينة « اسكلنده » وهو في طريقه إلى الملتان في إقليم البنجاب ، واصطحب معه الأمير السندي «ككسه» وكانت مدينة اسكلنده محصنة للغاية وأهلها قد استعدوا للحرب ، فخرج أهلها لقتال المسلمين ، فوجه إليهم ابن القاسم الجيش بقيادة رائدة بن عميرة الطائي ومعه الأمير ككسه ، واشتدت المعركة بين الطرفين إلى أن انهزم أهل اسكلنده وتحصنوا بقلعتهم فلجأ المسلمون إلى سلاحهم الثقيل حيث قذفوا القلعة بأحجار المجانيق والسهام

المشتعلة لمدة أسبوع ، حتى نقصت الغلة في جيش السند وهرب حاكم المدينة إلى حصن « سكه » بقرب الملتان ، فدخل محمد بن القاسم المدينة ودارت معركة داخلها فقتل كثير من جنود السند ووقع آخرون أسرى ، وأعطى ابن القاسم الأمان لعامة الناس ، ثم ولَّى على المدينة عقبة بن مسلمة التميمي (١) .

فتح قلعة سكه :

ثم اتجه الجيش الإسلامي بقيادة محمد بن القاسم إلى قلعة «سكه» وهي قلعة حربية ليس فيها إلا الجنود ويحكمها الأمير «بجھرا» وقد وقعت فيها بين المسلمين والسند معارك دامية استمرت سبعة عشر يوما ، واستشهد فيها عشرون قائدا من قادة المسلمين وخمسة عشر ومائتان من جيش المسلمين ، وقد حزن ابن القاسم حزنا شديداً على أولئك الشهداء وخاصة القادة فأقسم أن يهدم تلك القلعة ، وقد هرب أميرها بجھرا إلى الملتان ، فاستولى محمد بن القاسم على القلعة وأمر بهدمها وقتل من بقي فيها من الجنود (٢) .

وهذا مثل يصور لنا المعاناة الشديدة التي واجهها المسلمون الأوائل وهم يفتحون تلك البلاد المنيعه، والضحايا التي قدموها في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ونشر الإسلام في الأرض، فعلى أشلاء أولئك الشهداء في أنحاء المعمورة، وبدمائهم الزكية التي روي بها أرضها قامت بعد ذلك البلاد الإسلامية التي لا يزال أهلها أو أكثرهم يعبدون الله تعالى .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ٢١٤/١ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ٢١٤/١ ، فتوح البلدان / ٦١٧ .

فهل يتذكر الخلف المعاصرون ما قام به أسلافهم الأماجد من الجهود الجبارة في تحويل تلك الممالك الوثنية إلى أوطان إسلامية تخفق فوقها راية التوحيد ، فيحافظوا على وجود الإسلام القوي فيها ؟
لعلهم يتذكرون ، ولعلهم بعد ذلك يفعلون .

فتح مدينة الملتان :

زحف محمد بن القاسم الثقفي بالجيش الإسلامي نحو مدينة الملتان عاصمة إقليم البنجاب ، والتقوا بجيش السند بقيادة الأمير «كندا» حاكم الملتان ومعه الأمير بجهرا حاكم قلعة سكه الذي فرَّ منها واستمر القتال بعنف لمدة يومين سقط فيها كثير من القتلى ، ثم استخدم المسلمون سلاحهم الثقيل حيث رموا تلك المدينة بالمجانيق لمدة شهرين على فترات متقطعة ، ونفدت المواد الغذائية (١) .

يقول البلاذري : فأبلى زائدة بن عمير الطائي وانهزم المشركون فدخلوا المدينة ، وحصرهم محمد ، ونفدت أزواد المسلمين فأكلوا الحُمُر ، ثم أتاها رجل مستأمن فدَلَّهم على مدخل الماء الذي منه شربهم وهو ماء يجري من نهر بسمد فيصير في مجتمع له مثل البركة في المدينة وهم يسمونه البلاح ، فغوره ، فلما عطشوا نزلوا على الحكم ، فقتل محمد المقاتلة ، وسبى الذرية وسبى سدنة البُدّ - يعني الصنم - وهم ستة آلاف (٢) .

وهكذا كان بلاء المسلمين عظيمًا وانتصاراتهم متوالية في كل

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ٢١٥/١ .

(٢) فتوح البلدان / ٦١٧ .

معركة يخوضونها مع الأعداء ، ولم يكن يحدُّ من قوتهم واندفاعهم إلا الأسوار الضخمة والحصون المنيعة ، وهذه قد استخدموا لها المجانيق ونحوها ، ولكن قد تكون هناك بعض العوائق تحول دون وصول هذا النوع من السلاح كما هو الحال في مثل هذا البلدة وبلدة برهمناباد وهما من أعظم تلك البلاد تحصينا .

ولقد قيض الله للمسلمين في حصارهم للملتان هذا الرجل الذي دلَّهم على عورة بلاده حيث يتسرب إليهم ماء الشرب عبر مسارب خفية ، فكان قطع ذلك الماء وسيلة ناجعة إلى إلقاء أهل ذلك البلد على النزول على حكم المسلمين .

ولربما كان من المناسب أن نعود إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة حتى لا يظن بعض الناس أن هؤلاء الذين قدموا الخدمات الجليلة للمسلمين ليسوا إلا أناسا نفعيين يسعون لتأمين مصالحهم الخاصة ، والحقيقة أن هذه الظاهرة ناتجة عن إعجاب أولئك القوم بالإسلام وميلهم إلى المسلمين وما يرجونه من الخلاص على أيديهم من قهر الولاة وظلمهم لما اشتهر به المسلمون آنذاك من العدل والرحمة والمواساة ، ومما يدل على ذلك استمرار المشهورين من هؤلاء على الولاء للمسلمين ودخول كثير منهم في الإسلام .

وبعد فتح الملتان جاء الخبر بوفاة الحجاج بن يوسف فرجع محمد ابن القاسم إلى عاصمة السند « أرور » وتلقى تعازي الناس حيث كان الحجاج ابن عمه ووالد زوجته .

فتح إقليم الكيرج :

بعد فترة من الراحة خرج محمد بن القاسم بالجيش إلى إقليم الكيرج على حدود الهند حيث لجأ إليها الأمير جيسيه الذي كان ابن القاسم يعتبر بقاءه خطراً على مستقبل المسلمين في السند ، وجرت هناك معارك حامية بين المسلمين وأهل كيرج قُتل فيها حاكمها دوهر وفي ذلك يقول الشاعر :

نحن قتلنا داهراً ودوهرًا والخيل تردي منسرا فمنسرا
وسقطت المدينة بيد المسلمين^(١) .

نهاية محمد بن القاسم :

اتجه ابن القاسم إلى مدينة قنوج التي رفض حاكمها قبول الإسلام والاستسلام .

ولما كاد ابن القاسم أن يصل إلى قنوج التي تعتبر آخر بلاد السند جاء الأمر من الخليفة سليمان بن عبد الملك بعزله والقيد إلى العراق^(٢) ، حيث توفي الوليد بن عبد الملك وخلفه سليمان بن عبد الملك الذي قام بعزل جميع الولاة الذين أيدوا الوليد في سعيه لنقل الخلافة من سليمان إلى عبد العزيز بن الوليد ، وحيث لم يتم ذلك وآل الأمر إلى سليمان فقد أقدم على عزل أولئك الولاة من غير نظر إلى ما يترتب على ذلك من ضرر على المسلمين وعلى دعوة الإسلام .

(١) فتوح البلدان / ٦١٨ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ٢١٩/١ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ٢١٩/١ - ٢٢٢ ، فتوح البلدان / ٦١٨ .

وبعزل محمد بن القاسم توقف الجهاد في بلاد السند بل إن بعض مناطقها قد انتقضت بعد ذلك على حكم المسلمين .

ومما زاد الأمر سوءاً بالنسبة لابن القاسم أن سليمان بن عبد الملك ولَّى على العراق صالح بن عبد الرحمن وكان بينه وبين الحجاج عداً قديماً حيث كان الحجاج قد قتل أخاه آدم بن عبد الرحمن لكونه يرى رأي الخوارج ، فانتقم صالح من أقارب الحجاج الذين منهم محمد بن القاسم ، فقد ولَّى صالح بن عبد الرحمن على السند يزيد ابن أبي كبشة وأمره بأن يقيد محمد بن القاسم وأن يرسله إلى العراق ، ففعل ذلك واستسلم ابن القاسم طاعة لأولي الأمر بالرغم من شعبيته الكبيرة في بلاد السند وكثرة جنوده حيث بلغ عددهم خمسين ألفاً من العرب والسند .

وحمل ابن القاسم إلى العراق مقيداً وأدخله صالح بن عبد الرحمن في سجن واسط ، ولقد كان تأثره من تلك المعاملة القاسية شديداً وحزنه بالغاً حيث قال في ذلك :

فَلَيْتُ ثَوِيْتُ بِوَاسِطٍ وَبِأَرْضِهَا رَهْنُ الْحَدِيدِ مَكْبَلًا مَغْلُولًا
فَلَرَبِّ قَيْنَةٍ فَارِسٍ قَدْ رُعْتُهَا وَلَرُبِّ قَرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ قَتِيلًا
وقال أيضاً :

لو كنت أجمعت الفرار لوُطِّت إناث أُعِدَّتْ لِلوَغَى وَذُكُورُ
ومادخلتُ خيل السكاسك أرضنا ولا كان من عكٍّ عليّ أمير
ولا كنت للعبد المزونى تابعا فيالك دهر بالكرام عثور

وقد عذبه صالح في رجال من آل أبي عقيل الثقفين حتى قتلهم^(١).

وهكذا قُتِلَ هذا الشاب على يد هذا الوالي الظالم الذي أخذ بجريرة الحجاج كل من يتسبون إلى جده أبي عقيل على عادات الجاهلية .

وأفلَ هذا النجم الساطع الذي أضاء سماء بلاد السند بقوة وسرعة فائقة بعد أن قام بتلك الأعمال الجهادية العظيمة وأرسى قواعد الدولة الإسلامية في بلاد السند .

لقد كان محمد بن القاسم ناجحاً في الأعمال الحربية والأعمال الإدارية فقد نجح في كل حروبه التي قادها ونجح في إدارته لتلك البلاد الواسعة التي حكمها و استقطب محبة وإعجاب قادة المسلمين الذين كانوا تحت إدارته وقادة السند الذين أعلنوا الولاء له طوعاً وقدموا له خدمات كبيرة في أعماله الجهادية والإدارية .

ولقد كان محمد بن القاسم بارعاً جداً في استمالة زعماء الكفار حيث كان يقدرهم ويلطفهم ويُبقي على سيادتهم في أقوامهم . . . وكان لهذه السياسة البارعة أثر كبير في ولاء عدد منهم لدولة الإسلام ودخول بعضهم مع أقوامهم في الدين الإسلامي .

ولقد بلغ من نتائج هذه السياسة الحكيمة أن استطاع محمد بن القاسم أن يضم إلى جيشه أكثر من ثلاثين ألفاً من جنود السند مع قادتهم حتى بلغ جيشه في آخر معركة خاضها خمسين ألفاً .

(١) فتح البلدان / ٦١٨ - ٦١٩ .

وفي تقديري أنه لو استمر في القيادة مع دعم دولة الإسلام له لاستطاع أن يفتح جميع بلاد الهند ولخضع له ملوكها . . ولكن قاتل الله السياسة الهوجاء وأتباع الهوى وتغليب المصلحة الخاصة على مصلحة المسلمين العامة .

فلقد كان الهمُّ الكبير الذي يحمله سليمان بن عبد الملك أن ينتقم من ولاية أخيه الوليد الذين كان لهم معه مواقف غير مرضية من غير أن ينظر إلى مصلحة المسلمين العامة ومصلحة دولة الإسلام .

ولهذا الغرض اختار الولاة الذين يندفعون اندفاعاً أهوج نحو تحقيق هذا الغرض ، وكان ابن القاسم من ضحايا هذا الانحراف السياسي . بل كانت الدولة الإسلامية ومستقبل دعوة الإسلام من ضحايا ذلك . فرحم الله ابن القاسم وجزاء خيراً على ما قدم للإسلام والمسلمين .



– الجهاد في السند في عهد هشام بن عبد الملك –

بعد أن توفي أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك في يوم السبت من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة انتقلت الخلافة إلى أخيه أمير المؤمنين سليمان، ثم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وذلك في يوم الجمعة لعشر مضي من صفر سنة تسع وتسعين، ثم إلى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك في يوم الأربعاء لليال بقين من شهر رمضان سنة إحدى ومائة، ولم يكن في تلك العهود جهاد بارز في السند^(١)، غير أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان له جهد واضح في دعوة زعماء الكفار إلى الدخول في الإسلام، وقد أجابه إلى ذلك بعضهم وولى بعض هؤلاء على بلادهم كما هو مذكور في بيان مواقفه .

وحينما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان في أواخر شهر شعبان من سنة خمس ومائة^(٢) نشطت حركة الجهاد في السند بهدف تثبيت الأوضاع فيها وإخضاع بعض الولايات الهندية المجاورة التي كانت من عوامل عدم استقرار الأوضاع في السند .

ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المري :

في سنة سبع ومائة تولى الجنيد بن عبد الرحمن المري بلاد السند، وهو رجل سياسي كبير وقائد بصير، وكانت السند قد عظمت بها الفتن والقتال وقل بها الأمن، وعظم سلطان الأمير جيسيه الذي كان

(١) تاريخ الطبري ٤٩٥/٦ ، ٥٥٠ ، ٥٧٤ .

(٢) المرجع السابق ٢٥/٧ .

قد استولى على منطقة برهمناباد وأقره عليها أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز لما دخل في الإسلام .

ولما وصل الجنيد إلى بلاد السند قام بجولة في مناطقها فلما وصل إلى منطقة برهمناباد رفض جيسيه أن يسمح له بدخولها قائلا : إني قد أسلمت وولاني الرجل الصالح^(١) بلادي ، ولست آمنك ، فأعطاه رهنا وأخذ منه رهنا بما على بلاده من الخراج ، وخاف جيسيه من هجوم الجنيد عليه فاستعد له واستعان بحكام إقليم كجرات من بلاد الهند ، وكان كل واحد من القائدين يراقب تحركات الآخر إلى أن وقعت بين الجيشين معركة انهزم فيها جيش جيسيه ووقع هو في الأسر فقتله الجنيد .

ثم قام الجنيد بعد ذلك بإخضاع مدينة الكيرج وكان محمد بن القاسم قد فتحها ثم انتقضت على دولة الإسلام وأراد حاكمها الاستقلال كما فعل جيسيه ، فسار إليها الجنيد بجيشه وجرت بين الجيشين معركة دامية انهزم فيها حاكم الكيرج وتحصن بالمدينة ، فأمر الجنيد بن عبد الرحمن باستخدام المنجنيقات بالقذائف النارية والحجرية فقاذف المسلمون بها واستخدموا آلة حربية تسمى كباش وهي آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الخيل فيدق بها الحائط فينهدم ، فدكوا بها حائط المدينة حتى انثلم ، فدخلوا المدينة وقاتلوا أهلها بشدة حتى هزموهم ، وهرب حاكمها واستسلم أهلها .

ولما انتهى الجنيد من إخضاع منطقة السند جهز جيشا كبيرا

(١) يعني عمر بن عبد العزيز .

لإخضاع مناطق الهند المجاورة التي كانت تمد المتمردين في السند،
ففتح عددا من المدن منها مرمد ومندل ودهنج وبنجاسر عاصمة إقليم
كجرات الشمالية .

وعلم الجنيد بأن الكجراتيين يعدون العدة لحربه في مدينة بروص
(بهرج) فتوجه إلى هناك وحارب أهلها وفتح المدينة ثم توجه نحو
مدينة ماليه (مالوه) وفتحها كما فتح مدينة أرنين (أجين) ومدينة
بهرمد (١) .

وهكذا قام الجنيد بن عبد الرحمن المري بإخضاع بلاد السند
وإقليم كجرات من بلاد الهند بنجاح وسرعة ، وعادت الحياة إلى بلاد
السند بالطمأنينة والأمن .

ولاية الحكم بن عوانة الكلبي :

لم يستمر الأمن والاستقرار في السند طويلا حيث تم نقل الجنيد
ابن عبد الرحمن إلى ولاية خراسان لاحتياج الدولة الأموية له هناك ،
وذلك في سنة إحدى عشرة ومائة ، فتولى إمرة السند بعده تميم بن
زيد العتبي ولم يكن في مثل كفاءة الجنيد فاضطربت أحوال البلاد
وقامت الفتنة بين أهل السند والعرب وبين العرب أنفسهم ، ولما
أوشكت البلاد على نشوب حرب داخلية قرر تميم مغادرة البلاد إلى
العراق ، وقد مات في الطريق ، وعلم والي العراق خالد بن عبد الله
القسري بذلك فولى على السند الحكم بن عوانة الكلبي سنة اثنتي

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٣٢ - ٢٣٨ ، فتوح البلدان للبلاذري /
٦٢٠-٦٢١ ، الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٤ .

عشرة ومائة ، وقدم الحكم إلى السند وهي في ذلك الوضع المضطرب فسار سيرة حسنة وأحى الجهاد ، وكان من عوامل نجاحه اختياره عمرو ابن محمد بن مسلم الثقفي نائبا عنه لأن عمراً محبوب في السند لشهرة أبيه فاتح السند ، وقد أسند إليه الحكم قيادة الجيش فتحرك عمرو بالجيش لإخماد الفتن فرجع من جولاته منتصرا فاستقرت الأوضاع في السند ورضي أهلها بولاية الحكم .

ولقد بقي الحكم في إمارة السند حتى عام اثنين وعشرين ومائة ، حيث خرج على رأس جيش لإخماد الفتن التي ثارت في بعض مناطق السند وفي صحبته عمرو بن محمد بن القاسم فاستشهد الحكم وانتصر جيشه على الأعداء (١) .

ولاية عمرو بن محمد بن القاسم :

بعد استشهاد الحكم بن عوانة ولَّى والي العراق يوسف بن عمر على السند عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي ، فكان من أعماله بناء مدينة المنصورة لتكون حصنا للمسلمين عند أي هجوم من الأعداء ، وقد أفاد ذلك حيث هجم أحد ملوك الهند المجاورين للسند على تلك المدينة لما أحسَّ بقلّة جيش المسلمين المرابط فيها ، فتحصن بها المسلمون لعدم مقدرتهم على قتال ذلك الجيش المهاجم ، وطلب عمرو المدد من والي العراق فأمدّه بأربعة آلاف مقاتل ، فقرر عمرو مهاجمة الجيش الهندي وجعل على مقدمته معن بن زائدة الشيباني ،

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٣٨ - ٢٤٤ ، فتوح البلدان / ٦٢٢-٦٢٣ ، تاريخ خليفة بن خياط / ٣٥٤ ، الكامل في التاريخ / ١٣٥ .

وهجموا ليلا على الجيش الهندي فانتصر المسلمون وقتل الكثير من
الجيش الهندي ، ووقع ملكهم في الأسر ولكن المسلمين لم يعرفوه ،
فانقذه جنوده ولاذوا جميعا بالفرار وتركوا وراءهم أموالهم والأسرى
الذين أسرهم المسلمون (١) .

* * *

(١) تاريخ يعقوبي ٣٢٤/٢ .

الجهاد والفتوحات

فى

عهد العباسيين

- الجهاد في الهند في عهد المهدي -

لم يكن فيما بعد عهد هشام بن عبد الملك أخبار مهمة عن مواقف المسلمين الجهادية في بلاد السند ، حيث اشتغل المسلمون بالخلافات والقتال فيما بينهم حتى آلت الخلافة إلى العباسيين فاشتغلوا بتوطيد حكمهم ومقاومة الفتن الداخلية طيلة عهد أبي عبد الله السفاح وأبي جعفر المنصور .

وبعد وفاة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور بويع بالخلافة لولده المهدي محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما ، وذلك في يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة^(١) .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر الطبري في حوادث سنة تسع وخمسين ومائة أن المهدي وجه عبد الملك بن شهاب المسمعي في البحر إلى بلاد الهند ، وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخصهم معه ، وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرباطات ألفا وخمسمائة رجل ، ووجه معه قائداً من أبناء أهل الشام يقال له ابن الحباب المذحجي في سبعمائة من أهل الشام ، وخرج معه من مطوعة أهل البصرة بأموالهم ألف رجل ، فيهم - فيما ذكر - الربيع ابن صبيح ، ومن الأسواريين والسبابجة^(٢) أربعة آلاف رجل ، فولّى عبد الملك بن شهاب المنذر بن محمد الجارودي على الألف رجل

(١) تاريخ الطبري ١٠٨/٨ .

(٢) ذكر الطرازي أنهم من السند - موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٦٤ .

المطوعة من أهل البصرة ، وولى ابنه غسان بن عبد الملك الألفي رجل
الذين من فرض البصرة وولى عبد الواحد بن عبد الملك الألف
والخمسمائة الرجل من مطوعة المراتبات ، وأفرد يزيد بن الحباب في
أصحابه فخرجوا ، وكان المهدي وجه لتجهيزهم حتى شخصوا أبا
القاسم محرز بن إبراهيم ، فمضوا لوجههم حتى أتوا مدينة باربند^(١)
من بلاد الهند في سنة ستين ومائة^(٢) .

وذكر المؤرخ ابن الأثير أنهم نزلوا أهل تلك المدينة وحاصروها
من نواحيها ، وحرّض الناس بعضهم بعضا على الجهاد وضايقوا أهلها
ففتحها الله عليهم عنوة ، وأن أهلها احتموا بالبدّ وهو الصنم الذي
لهم فأحرقه المسلمون عليهم فاحترق بعضهم وقُتل الباقون ، واستشهد
من المسلمين بضعة وعشرون رجلا^(٣) .

* . *

(١) ذكر الطرازي أن أصلها بهاربوت وهي ميناء صغير يقع على بعد سبعة أميال من ميناء
بهروج (بروص) - المرجع السابق ٢٦٤/١ - .

(٢) تاريخ الطبري ١١٦/٨ - ١١٧ .

(٣) الكامل في التاريخ ٥٥/٥ .

– جهاد محمود بن سبكتكين في بلاد الهند –

قبل الحديث عن جهاد هذا البطل الكبير والقائد البصير فإنه يحسن بنا تقديم نبذة موجزة عن حياته وعن دولته الفتية القوية التي استولى بها على معظم أقطار الهند وقضى بها على معظم ملوكهم .

فهو السلطان أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة سبكتكين ، لقبه أمير المؤمنين القادر بالله بعدما جعله سلطانا بعد موت أبيه « يمين الدولة وأمين الملة » فاشتهر بذلك .

تولى أبوه إمارة « غزنة » ^(١) من قبل السامانيين بعدما مات حاكمها أبو إسحاق ابن البكتين ، وكان سبكتكين أبرز رجاله ، فاجتمعت كلمة مُقَدَّمي تلك الإمارة على تأمير سبكتكين لشهامته وشجاعته .

وقد آل الأمر إلى ابنه محمود بعد موته بعد نزاع كان مع أخيه إسماعيل ، وقد قام محمود بتوسيع نطاق دولته حيث استولى على خراسان وانتزعها من يد السامانيين سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، فقويت بذلك دولته ، وأصبح أمراء خراسان من أركان دولته وجيشه وشاركوه في فتوحاته .

ثم إن بلاد سجستان دخلت في طاعته سنة ثلاث وتسعين بدون قتال ، وذلك بدخول قوادها وولاة أمرها تحت سلطانه .

وقد فرض على نفسه غزو بلاد الهند كل عام .

(١) هي عاصمة إقليم زابلستان ، ويقع هذا الإقليم بين خراسان والهند – معجم البلدان

ذكر ذلك ابن خلكان ثم قال : ولم يزل يفتح في بلاد الهند حتى انتهى إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ، ولم تُتَلَّ به قط سورة ولا آية .

وقد توفي رحمه الله سنة إحدى أو اثنتين وعشرين وأربعمائة^(١) .

وذكر الحافظ ابن كثير أنه سار في رعاياه سيرة عادلة وقام في نصر الإسلام قياما تاما ، قال : وفتح في بلاد الكفار من الهند فتوحات هائلة ، لم يتفق لغيره من الملوك ، لا قبله ولا بعده ، وكسر من أصنامهم شيئا كثيرا^(٢) .

جهاده مع جييال ملك الهند :

يقول المؤرخ العلامة أبو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير : في هذه السنة [يعني سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة] أوقع يمين الدولة محمود بن سبكتكين بجييال ملك الهند وقعة عظيمة ، وسبب ذلك أنه لما اشتغل بأمر خراسان وملكها وفرغ منها ومن قتال خلف بن أحمد ، وخلا وجهه من ذلك أحب أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين ، فثنى عنانه نحو تلك البلاد فنزل على مدينة برشور ، فأتاه عدو الله جييال ملك الهند في عساكر كثيرة ، فاختار يمين الدولة من عساكره والمطوعة خمسة عشر ألفا ، وسار نحوه فالتقوا في المحرم من هذه السنة ، فاقتتلوا وصبر الفريقان ، فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقُتل فيهم مقتلة عظيمة ، وأسر

(١) وفیات الاعيان ١٧٥/٥ - ١٨١ .

(٢) البداية والنهاية ٣٢/١٢ .

جيال ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته ، وغنم المسلمون منهم أموالاً جليلة وجواهر نفيسة ، وأخذ من عنق عدو الله جيبال قلادة من الجواهر العديم النظير ، قوّمت بمائتي ألف دينار ، وأصيب أمثالها في أعناق مقدّمي الأسرى (١) .

وإن ما شعر به محمود بن سبكتكين من ارتكاب الذنب في قتال حكام الدويلات المجاورة من المسلمين يدل على اتصافه بشيء من الورع والخشية ، ولعل الله تعالى أن يكفر عنه عمله هذا بجهاد الطويل ضد الكفار وتحطيم الآلاف من الأصنام ودخول الآلاف من الكفار في الإسلام على يديه .

وما جاء في هذا الخبر من وصف ذلك الحاكم الهندي وحاشيته من التحلي بالجواهر النفيسة الغالية يدل على ما كانوا يعيشون فيه من حياة الترف والبدخ الذي يقوم غالباً على ظلم المستضعفين ، فمأغنى عنهم ذلك شيئاً ولاكثره جنودهم وعتادهم لما حُلّت بهم نقمة الله تعالى على يد جنوده المجاهدين .

جهاده مع بيدبا صاحب كواكير :

ذكر ابن الأثير أن السلطان محمود بعد أن غزا الملتان سار عنها إلى قلعة كواكير ، وكان صاحبها يعرف بِبَيْدَا ، وكان بها ستمائة صنم ، فافتتحها وأحرق الأصنام ، فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة لكالنجار ، فسار خلفه إليها ، وهو حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان ، وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة ، وفي الحصن ما يكفي

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢١٣ .

الجميع مدة ، فلما قاربها يمين الدولة وبقي بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق مالا حد له ، فأمر بقطعها ، ورأى في الطريق واديا عظيم العمق بعيد القعر ، فأمر أن يطعم منه مقدار يسع عشرين فارسا فطموه بالجلود المملوءة ترابا ، ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوما ، وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه ، ثم بلغه عن خراسان اختلاف فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف من الفضة (١) .

وهذا الخبر فيه مثل من الصعاب والمشاق التي كان يواجهها يمين الدولة محمود بن سبكتكين في جهاده في بلاد الهند واجتهاده في هدم معالم الشرك التي أهمها الأصنام .

جهاده في بلاد الغور :

وذكر ابن الأثير أيضاً غزو يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الغور فقال : بلاد الغور تجاور غزنة ، وكان الغور يقطعون الطريق ويخيفون السبيل وبلادهم جبال وعرة ومضايق غلقة ، وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها ، فلما كثر ذلك منهم أنف يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هذه الحال من الفساد والكفر ، فجمع العساكر وسار إليهم وعلى مقدمته التونتاش الحاجب صاحب هراة ، وأرسلان الجاذب صاحب طوس ، وهما أكبر أمرائه ، فسارا فيمن معهما حتى انتهوا إلى مضيق قد شُحن بالمقاتلة ، فتناوشوا الحرب وصبر الفريقان ، فسمع يمين

(١) الكامل في التاريخ ٢٢٨/٧ .

الدولة الحال فجداً في السير إليهم ، وملك عليهم مسالكهم فتفرقوا وساروا إلى عظيم الغورية المعروف بابن سوري ، فانتهموا إلى مدينته التي تُدعى آهنكران فبرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتل ، فقاتلهم المسلمون إلى أن انتصف النهار ، فأروا أشجع الناس وأقواهم على القتال ، فأمر يمين الدولة أن يولوهم الأدبار على سبيل الاستدراج ففعلوا ، فلما رأى الغورية ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوهم حتى أبعدوا عن مدينتهم ، فحيثئذ عطف المسلمون عليهم ووضعوا السيوف فيهم فأبادوهم قتلاً وأسراً ، وكان في الأسرى كبيرهم وزعيمهم ابن سوري ، ودخل المسلمون المدينة وملكوها وغنموا مافيها ، وفتحوا تلك القلاع والحصون التي لهم جميعها ، فلما عاين ابن سوري ما فعل المسلمون بهم شرب سماً كان معه فمات ، وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، وأظهر يمين الدولة في تلك الأعمال شعار الإسلام وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه ، وعاد (١) .

وهكذا كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين مغامراً جسوراً حينما سار بجيشه إلى أولئك القوم الأشداء الذين قد امتنعوا بجمالهم الوعرة وحصونهم المنيعه ، ولقد وفق بقادة وجنود طائعين فدائين حيث قاموا بتلك المهمة الصعبة .

كما أنه وفق في خطته الحربية التي أظهر فيها التراجع خدعة لأعدائه ثم كر عليهم بعدما أبعدوا عن حصونهم ففاجأهم بما أذهلهم وحط من قواهم فتفرقوا وانهزموا .

(١) الكامل في التاريخ ٢٥٣/٧ .

وإن من مواقفه العالية اهتمامه بدعوة أولئك القوم إلى الإسلام ،
وتكليف من يعلمونهم شرائعه .

جهاده في وسط الهند :

من مواقف السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الجهادية
ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة أربع وأربعمئة قال : في هذه السنة
سار يمين الدولة إلى الهند في جمع عظيم وحشد كثير ، وقصدوا
سطة البلاد من الهند فسار شهرين حتى قارب مقصده ورتب أصحابه
وعساكره ، فسمع عظيم الهند به فجمع من عنده من قواده وأصحابه ،
وبرر إلى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسلك فاحتفى به وطاول
المسلمين ، وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية ، فاجتمع عليه
منهم كل من يحمل سلاحا ، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل ،
وتصافى هو والمسلمون واشتد القتال وعظم الأمر ، ثم إن الله تعالى
منح المسلمين أكتافهم فهزموهم وأكثروا القتل فيهم ، وغنموا مامعهم
من مال وفيلة وسلاح وغير ذلك .

ووجد في بيت بد عظيم (١) حجر منقور ، دلّت كتابته على أنه
مبني منذ أربعين ألف سنة ، فعجب الناس لقلة عقولهم (٢) .

وهكذا انتصر المسلمون على ذلك الحاكم الهندي بالرغم من كونه
قد أحكم أمره حينما لجأ إلى ذلك الجبل ، ثم جمع جنده واستنجد
بكل من حوله حتى كوّن جيشا عظيما ، ولكنهم لم يثبتوا أمام عزم
المسلمين القوي وصبرهم الشديد .

(١) البد بضم الباء وتشديد الدال المضمومة هو الصنم .

(٢) الكامل في التاريخ ٧ / ٢٧٠ - ٢٧١ .

جهاده في بلاد تانيشر :

ثم ذكر ابن الأثير في حوادث سنة خمس وأربعمائة أنه قد ذكر
ليمين الدولة أن بناحية تانيشر فيلةٌ من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة
في الحرب ، وأن صاحبها غَالٍ في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين ،
فعزم على غزوه في عقر داره ، وأن يذيقه شربة من كأس قتاله ، فسار
في الجنود والعساكر والمتطوعة فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة
المسالك وقفاراً فسيحة الأقطار والأطراف ، بعيدة الأكناف ، والماء بها
قليل ، فلقوا بها شدة وقاسوا مشقة ، إلى أن قطعوها ، فلما قاربوا
مقصدهم لقوا نهراً شديداً الجرية صعب المخاضة ، وقد وقف صاحب
تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ، ومعه عساكره وفيلته التي كان
يُدُلُّ بها ، فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر وإشغال الكفار
بالمقاتلة ليتمكن باقي العسكر من العبور ، ففعلوا ذلك وقتلوا الهنود ،
وشغلوهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاضات
وقتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار ، فانهزم الهنود وظفر
المسلمون وغنموا مامعهم من أموال وفيلة ، وعادوا إلى غزنة موفرين
ظافرين (١) .

وهذا الخبر يشتمل على خطة حربية ناجحة خطط لها يمين الدولة
ونجح في تنفيذها ، حيث أشغل الجيش الهندي بطائفة من جيشه
ليتمكن بقية الجيش الإسلامي من عبور النهر ، فعبروا وطوقوا الكفار
من كل الجهات ، ولقد كان أولئك الجنود المنتخبون لإشغال الكفار في

(١) الكامل في التاريخ ٢٧٢/٧ .

غاية الشجاعة والتضحية حيث فدّوا بقية الجيش الإسلامي بأنفسهم ،
وتلقوا الضربات الأولى التي تكون هي أشد القتال وأعنفه .

جهاده في بلاد قشмир وماحولها :

وذكر ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة سبع وأربعمائه أن يمين
الدولة غزا بلاد الهند ، عازماً على غزو قشмир ، إذ كان قد استولى
على بلاد الهند ما بينه وبين قشмир ، وأتاه من المتطوعة نحو عشرين
ألف مقاتل ، مما وراء النهر وغيره من البلاد ، وسار إليها من غزنة
ثلاثة أشهر سيراً دائماً ، وعبر سيحون وجيلوم ، وهما نهران عميقان
شديداً الجرية ، فوطئ أرض الهند وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل
الإتاوة ، فلما بلغ درب قشмир أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين
يديه إلى مقصده ، فبلغ ماء جون في العشرين من رجب ، وفتح
ماحولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة ، حتى بلغ حصن
هوَدَب وهو آخر ملوك الهند ، فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من
العساكر ما هاله وأرعبه ، وعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام ، فخرج في
نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص طلباً للخلاص ، فقبله يمين
الدولة وسار عنه إلى كَلَجَنْد ، وهو من أعيان الهند وشياطينهم ، وكان
على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة ، فسير
كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها ،
فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم وسلك طريقاً مختصرة إلى الحصن
من خلفهم فلم يشعروا به إلا وهو معهم ، فقاتلهم قتالاً شديداً فلم
يطيقوا الصبر على حد السيوف فانهزموا ، وأخذهم السيف من

خلفهم ، ولقوا نهر عميقا بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم ، وكان القتلى والغرقى قريبا من خمسين ألفا .

وعمد كلجند إلى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه .

ثم سار [يعني يمين الدولة] نحو بيت متعبد لهم وهو من مهرة الهند ، وهو من أحصن الأبنية ، على نهر ، ولهم به من الأصنام كثير ، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر ، وكان فيها من الذهب ثلاثمائة وتسعون ألفا وستمائة ألف مثقال ، وكان بها من الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم ، فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقي .

وسار نحو قنوج وصاحبها راجييال ، فوصل إليها في شعبان ، فرأى صاحبها قد فارقها وعبر الماء المسمى كَنَكُ ، وهو ماء شريف عندهم ، يرون أنه من الجنة وأن من غرق نفسه فيه طهر من الآثام ، فأخذها يمين الدولة وأخذ قلاعها وأعمالها ، وهي سَبْع على الماء المذكور ، وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم ، يذكرون أنها عُمِلت من مائتي ألف سنة إلى ثلاثمائة ألف كذبا منهم وزورا ، ولما فتحها أباحها عسكره (١) .

وإننا نلاحظ من هذا العرض وماسبقه كثرة الأصنام في الهند إلى حد كبير ، كما نلاحظ إغراقا من زعمائها وحاشيتهم في الترف والزينة ، فكان لهم بالمرصاد بطل الإسلام يمين الدولة محمود بن

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٨٢ - ٢٨٣ .

سبكتكين الذي قضى على ما جمعه من زخارف الدنيا وسلب منهم ذلك وتقوى به على الجهاد في سبيل الله تعالى ، وأزال في مدة قصيرة ما بناه مضللوهم من الأصنام على مدى آلاف السنين .

وهكذا يتبوأ المسلمون أعمال الإصلاح والتطهير عن طريق الجهاد الإسلامي العظيم .

جهاده في مملكة كجورامة :

ومن مواقف السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الجهادية مذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وأربعمئة . قال : في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند غازيا ، واحتشد وجمع واستعد وأعد أكثر مما تقدم .

وسبب هذا الاهتمام أنه لما فتح قنوج وهرب صاحبها « رأي قنوج » منها أرسل بيذا اللعين - وهو أعظم ملوك الهند مملكة وأكثر جيشا وتسمى مملكته كجورامة - أرسل رسلا إلى رأي قنوج - واسمه راجيبال - يوبخه على انهزامه وإسلام بلاده للمسلمين ، وطال الكلام بينهما ، وآل أمرهما إلى الاختلاف ، وتأهب كل واحد منهما لصاحبه وسار إليه ، فالتقوا واقتتلوا ، فقتل راجيبال وأتى القتل على أكثر جنوده ، فازداد بيذا بما اتفق له شرّاً وعبثوا وبُعْدَ صيت في الهند وعلواً ، وقصده بعض ملوك الهند الذي ملك يمين الدولة بلاده وهزمه وأباد أجناده وصار في جملة وخدمه ، والتجأ إليه فوعده بإعادة ملكه وحفظ ضالته عليه ، واعتذر بهجوم الشتاء وتتابع الأنداء (١) .

(١) لعله أراد الأمطار .

فنمت هذه الأخبار إلى يمين الدولة فأزعجته وتجهز للغزو وقصد بيدا وأخذ ملكه منه ، وسار من غزنة وابتدأ في طريقه بالأفغانية وهم كفار يسكنون الجبال ويفسدون في الأرض ويقطعون الطريق بين غزنة وبينه - فقصد بلادهم وسلك مضايقتها وفتح مغالقها وخرب عامرها ، وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر ، وغنم المسلمون من أموالهم الكثير .

ثم استقل على المسير ، وبلغ إلى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته ، وعبر نهر كنك ، ولم يعبره قبلها ، وجد به السير فأثابه في الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له « بروجييال » قد سار من بين يديه مُلتجئاً إلى بيدا ليحتمي به عليه ، فطوى المراحل فلحق ببروجييال ومن معه رابع عشر شعبان ، وبينه وبين الهند نهر عميق ، فعبر إليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال ، ثم عبر هو وباقي العسكر إليهم ، فاقتتلوا عامة نهارهم ، وانهزم بروجييال ومن معه ، وكثر فيهم القتل والأسر ، وأسلموا أموالهم وأهلهم فغنمها المسلمون ، وأخذوا منهم الكثير من الجواهر ، وأخذوا مايزيد على مائتي فيل ، وسار المسلمون يقتصون آثارهم ، وانهزم ملكهم جريحا وتحير في أمره ، وأرسل إلى يمين الدولة يطلب الأمان فلم يؤمنه ، ولم يقنع منه إلا بالإسلام ، وقُتل من عساكره مالا يُحصى ، وسار بروجييال ليلحق ببيدا ، فانفرد به بعض الهند فقتله .

فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم إلى يمين الدولة يبذلون له الطاعة والإتاوة .

وسار يمين الدولة بعد الوقعة إلى مدينة باري ، وهي من أحصن القلاع والبلاد وأقواها ، فرآها من سكانها خالية ، وعلى عروشها خاوية ، فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصانة ، وقتل من أهلها خلقا كثيرا .

وسار يطلب بيذا الملك فلحقه وقد نزل إلى جانب نهر وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلا ، وترك عن يمينه وشماله طريقا يبسا يقاتل منه إذا أراد القتال وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس وأربعة وثمانين ألف راجل ، وستة وأربعين وسبعمائة فيل ، فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال ، فأخرج إليهم بيذا مثلهم ، ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه حتى كثر الجمعان واشتد الضرب والطعان ، فأدركهم الليل وحجز بينهم .

فلما كان الغد بكرَّ يمين الدولة إليهم فرأى الديار منهم بلاقع ، وركب كل فرقة منهم طريقا مخالفا لطريق الأخرى ، وخزائن الأموال والسلاح بحالها ، فغنموا الجميع ، واقتفوا آثار المنهزمين ، فلحقوهم في الغياض والآجام وأكثروا فيهم القتل والأسر ، ونجا بيذا فريدا وحيدا ، وعاد يمين الدولة إلى غزنة منصورا ^(١) .

وهذا الخبر يبين لنا دقة رصد المسلمين الحربي ، حيث عرف يمين الدولة عن تحركات ملوك الهند نحو التحالف مع الملك بيذا بالرغم من بُعد المسافة ، كما يدل على ضعف ملوك الهند في ذلك ، حيث لم يعلم الملك بروجيال عن تحرك المسلمين إلا بعد أن قابلوه أو قربوا

(١) الكامل في التاريخ ٣٠١/٧ - ٣٠٢ .

منه ، كما أن في هذا الخبر مثلاً من شجاعة أبطال المسلمين حيث عبر النهر إلى جيش الهند بعضُ أصحاب يمين الدولة ، فشغلوهم بالقتال حتى عبر بقية جيش المسلمين ، كما أن في هذا الخبر أمثلة واضحة من سلاح الرعب الذي نصر الله تعالى به المسلمين ، وأبرز ذلك هروب ملك الهند بيذا الذي جمع من السلاح والجنود مالم يجمعه الملوك قبله ، فلما رأى ضراوة قتال المسلمين أصيب بالرعب وأيقن بالهزيمة ، فاغتنم فرصة ظلام الليل ليهرب هو وجيشه في كل ناحية .

جهاده في بلاد أخرى :

من أخبار هذا المجاهد الكبير يمين الدولة محمود بن سبكتكين ما ذكره الحافظ ابن كثير في حوادث سنة عشر وأربعمائة أنه غزا مدينة في الهند فيها ألف قصر مَشِيدٌ وألف بيت للأصنام ، وفيها من الأصنام شيء كثير ، ومبلغ ما على الصنم من الذهب ما يقارب مائة ألف دينار ، ومبلغ الأصنام من الفضة زيادة على ألف صنم ، وعندهم صنم معظم يؤرخون له وبه - بجهالتهم - ثلاثمائة ألف عام ، وقد سَلَبَ ذلك كُلُّه محمود بن سبكتكين وذكر أن عدد القتلى من الهنود خمسون ألفاً ، وأسلم منهم عشرون ألفاً (١) .

وذكر العالم المؤرخ ابن الأثير أن ابن سبكتكين غزا الهند في سنة أربع عشرة وأربعمائة ، فأوغل فيها فغنم وقتل ، حتى وصل إلى قلعة على رأس جبل منيع ، ليس له مصعد إلا من موضع واحد ، وهي كبيرة تسع خلقاً ، وبها خمسمائة فيل ، وفي رأس الجبل من الغلات

(١) البداية والنهاية ١٢/٨ - ٩ .

والمياه وجميع ما يحتاج الناس إليه ، فحصرهم وأدام الحصار وضيق عليهم واستمر القتال ، فقتل منهم كثير ، فلما رأوا ما حلَّ بهم أذعنوا له وطلبوا الأمان ، فأمنهم وأقر ملكهم فيها على خراج يأخذه منهم^(١) .

جهاده في سُمونات :

من أبرز مواقف السلطان محمود الجهادية قضاؤه على أعظم أصنام الهند « سُمونات » ، وفي خبر ذلك يقول المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ست عشرة وأربعمئة : في هذه السنة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدة حصون ومدن ، وأخذ الصنم المعروف بسُمونات ، وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند ، وهم يحجُّون إليه في كل ليلة خسوف فيجتمع عنده ما ينيف على مائة ألف إنسان ، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على مذهب التناسخ ، فينشئها فيمن شاء ، وأن المدَّ والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر على قدر استطاعته ، وكانوا يحملون إليه كل علق نفيس ، ويعطون سدنته كل مال جزيل ، وله من الموقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية ، وقد اجتمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر ما لا يحصى قيمته .

ولأهل الهند نهر كبير يسمى كَنَكُ يعظمونه غاية التعظيم ، ويُلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم ، ويعتقدون أنها تساق إلى جنة النعيم ، وبين هذا النهر وبين سُمونات نحو مائتي فرسخ ، وكان يُحمل من مائه كل يوم إلى سُمونات ما يغسل به .

ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم

(١) الكامل في التاريخ ٣١٥/٧ .

الوفود إليه ، وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوس زواره ولحاهم ، وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون على باب الصنم ، ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم .

وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحاً وكسر صنماً يقول الهنود : إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات ، ولو أنه راض عليها لأهلك من قصدها بسوء ، فلما بلغ يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه ظننا منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام ، فاستخار الله تعالى وسار من غزنة عاشر شعبان من هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة ، وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان .

وفي طريقه إلى الهند برية قفر لا ساكن فيها ولا ماء ولا ميرة ، فتجهز هو وعسكره على قدرها ، ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد « أنهلوار » ، فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصونا مشحونة بالرجال ، وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها ، فيسر الله تعالى فتحها عند قربه منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم ، وتسلمها وقتل سكانها وأهلك أوثانها ، وامتاروا منها الماء وما يحتاجون إليه .

وسار إلى أنهلوار فوصلها مستهل ذي القعدة ، فرأى صاحبها المدعو « بهيم » قد أجفل عنها وتركها وأمعن في الهرب ، وقصد حصناً له يحتمي به ، فاستولى يمين الدولة على المدينة .

وسار إلى « سومنات » فلقي في طريقه عدة حصون فيها كثير من

الأوثان شبه الحُجَّاب والنقباء لسومنات ، على ماسوَلْ لهم الشيطان ، فقاتل من بها وفتحها وخرَّبها وكسر أصنامها ، وسار إلى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء ، فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك ، فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا أموالهم ، وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا « دبولواره » وهي على مرحلتين من سومنات ، وقد ثبت أهلها ظناً منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع عنهم ، فاستولى عليها وقتل رجالها وغنم أموالها .

وسار عنها إلى سومنات فوصلها يوم الخميس منتصف ذي القعدة ، فرأى حصناً حصيناً مبنيّاً على ساحل البحر ، بحيث تبلغه أمواجه ، وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم .

فلما كان الغد - وهو الجمعة - زحف وقاتل من به ، فرأى الهنود من المسلمين قتالا لم يعهدوا مثله ، ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلايم ، وصعدوا إليه ، وأعلنوا بكلمة الإخلاص ، وأظهروا شعار الإسلام ، فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب ، وتقدم جماعة الهنود إلى سومنات فعفرُوا له خدودهم وسألوه النصر ، وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض .

فلما كان الغد بكرَّ المسلمون إليهم وقاتلوهم ، فأكثروا في الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة إلى بيت صنمهم سومنات ، فقاتلوا على بابه أشد قتال ، وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل إلى سومنات فيعتنقونه ويكون ويتضرعون إليه ، ويخرجون فيقاتلون إلى أن

يُقتلوا، حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقي منهم القليل فدخلوا البحر إلى مركبين لهم لينجوا فيهما ، فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضا وغرق بعض .

وأما البيت الذي فيه سومنات فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصنح بالرصاص ، وسومنات من حجر ، طوله خمسة أذرع ، ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان في البناء ، وليس بصورة مصورة ، فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه معه إلى غزنة فجعله عتبة الجامع .

وكان بيت الصنم مظلمًا وإنما الضوء الذي عنده من قناديل الجواهر الفائق ، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا مَن ، كلما مضى طائفة معلومة من الليل حُرِّكت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهمنين إلى عبادتهم ، وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية ، وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجواهر كل واحد منها منسوب إلى عظيم من عظمائهم .

وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار فأخذ الجميع ، وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل (١) .

وبعد ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : إقدام محمود بن سبكتكين على قطع تلك المسافات البعيدة المشتملة على الصحاري المهلكة التي لا ماء فيها ولا طعام ، ولقد كان يعلم خطورة قطع تلك الصحاري فاستعد لها الاستعداد الكافي ، وإذا

(١) الكامل في التاريخ ٧ / ٣٢٠ - ٣٢١ .

عرفنا أن استعداداته الاحتياطي عشرون ألف جمل يَحْمِلُ الماء والطعام
فإننا نعرف ضخامة العتاد الذي أعده يمين الدولة لتلك الرحلة الجهادية
الشاقة .

ثانيًا : حرص يمين الدولة على نشر الإسلام ، فقد كان سفره
ذلك وتحمله تلك المشاقَّ العظيمة للقضاء على ذلك الصنم الكبير ، من
أجل أن يدرك الهنود أنه ليس هناك آلهةٌ مع الله تعالى ينصرون
عابديهم أو ينفعونهم ، فيدفعهم ذلك إلى الإسلام .

ثالثًا : نصر الله تعالى أولئك المجاهدين بسلح الرعب واضح في
عدة مواطن ، وهذا دليل على صلاح ذلك الجيش وصدق نية أفراده .

رابعًا : في تلك المعركة الفاصلة حَوْلَ أكبر أصنام الهند اجتمع
عِبَادُ الله تعالى الذين يعبدونه ويستلهمون منه النصر والتأييد مع عباد
ذلك الصنم الذين يعبدونه ويطلبون منه النصر والتأييد ، وكان في
يقينهم أن من احتمى بذلك الصنم لا يُغْلَب ، بل كانوا يظنون أنهم
ليسوا بحاجة إلى أن يدخلوا مع العدو المهاجم في معارك ، لاعتقادهم
بأن تلك الساحات ستكون مقبرة للغزاة بمجرد غضبة من ذلك الصنم ،
ولذلك وقفوا على الأسوار يتفرجون على المسلمين انتظاراً منهم لتلك
اللحظة التي يتحولون فيها إلى حطام مبدد وركام ملبّد .

فلماذا بهم يرون من المسلمين قتالا منعدم النظير ، وإذا بهم
يشاهدونهم وهم يصعدون إلى السور وهم يكبرون الله جل وعلا
ويوحدونه .

وعاد الكفار أدراجهم يعانقون صنمهم ويطلبون منه النصر والحماية ، ولكن لآحياة لمن تنادي .

إنه لعجب أن ينحدر الفكر البشري فيتوقع أن صنما من الجماد يستطيع نصره وإنقاذه ، ولقد كانت تلك العقيدة الساذجة مشتركة بين أمم العالم قبل الإسلام ، فزالت تلك العقيدة بدخول الناس في الإسلام ، ولكنها بقيت في بلاد الهند آنذاك حيث لم يصل الفتح الإسلامي إلا إلى أطرافها الغربية .

إن أي عاقل يتصور هذا الموقف يدرك الفرق الشاسع بين قوم يستلهمون النصر من حجر ، وقوم يستلهمونه من خالقهم وخالق أعدائهم وخالق كل شيء جل وعلا .

ولقد ظهر الحق وزهق الباطل حينما انتصر عباد الله سبحانه على عباد الأصنام ، وخسر أولئك الكفار دنياهم وآخرتهم ، كما خسر عبّاد الأصنام من قبلهم .

خامساً : حطّم ذلك القائد الكبير يمين الدولة أكبر أصنام الهند وماحوله من الأصنام ، كما حطّم قبل ذلك آلاف الأصنام ، ولم يمرّ عليّ أن قائدا مسلما حطم من الأصنام بقدر ما حطم السلطان محمود ابن سبكتكين ، ويكفي مثالا على ذلك أنه لما فتح بلاد قنوج وجدّ بها ما يقرب من عشرة آلاف صنم فأبأها كما تقدم ، وهذه منقبة عظيمة لهذا القائد الكبير .

ولفتة جليلة حينما حمل السلطان محمود جزءاً من صنم الهند الكبير « سومنات » فجعله عتبة لباب المسجد الجامع في غزنة ، وكأنه

أراد أن يقول للناس : هذا الصنم الذي يعبدوه ويقدسه ماثات الألف من البشر هو الذي نطوه نحن بأقدامنا ، وهذه صورة معبرة من إذلال الكفر وأهله .

سادسًا : لقد مَنَّ الله تعالى على يمين الدولة بتلك الانتصارات المذكورة لكونه جمع بين القوتين : المادية والمعنوية ، فهو لم يهمل الأسباب المادية ، بل أعد كل ما يمكن منه من السلاح والعتاد والجنود المدربين ، إلى جانب اهتمامه بشكل أبلغ بالقوة المعنوية ، حيث كان متوكلا على الله تعالى رافعا شعار توحيده ، يستلهم منهم النصر والتأييد ، وقبل ذلك كان مستقيما عادلا في حكمه .

من مواقفه في الإصلاح والعدل :

ومن مواقفه في الإصلاح والعدل ما ذكره الحافظ ابن كثير بقوله :
وبنى على جيحون جسرا تعجز الملوك والخلفاء عنه ، غرم عليه ألفي ألف دينار ، وهذا شيء لم يتفق لغيره .

قال : وكان عادلا جيدا اشتكى إليه رجل أن ابن أخت الملك يهجم عليه في داره وعلى أهله في كل وقت ، فيخرجه من البيت ويختلي بامراته ، وقد حار في أمره ، وكلما اشتكاه لأحد من أولي الأمر لا يجسر أحد عليه خوفا وهيبة للملك ، فلما سمع الملك ذلك غضب غضبا شديداً وقال للرجل : ويحك متى جاءك فأتني فأعلمني ، ولا تسمع من أحد منعك من الوصول إلي ، ولو جاءك في الليل فأتني فأعلمني ، ثم إن الملك تقدم إلى الحجة وقال لهم : إن هذا الرجل متى جاءني لا يمنعه أحد من الوصول إلي من ليل أو نهار ،

فذهب الرجل مسروراً داعياً ، فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى هجم عليه ذلك الشاب فأخرجه من البيت واختلى بأهله ، فذهب باكياً إلى دار الملك فقيل له إن الملك نائم ، فقال : قد تقدم إليكم أن لا أمتنع منه ليلاً ولانهاراً ، فنبهوا الملك فخرج معه بنفسه وليس معه أحد ، حتى جاء إلى منزل الرجل فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراش واحد ، وعندهما شمعة تقدُ ، فتقدم الملك فأطفأ الضوء ثم جاء فاحتز رأس الغلام وقال للرجل : ويحك الحقني بشربة ماء ، فأثابه بها فشرب ثم انطلق الملك ليذهب ، فقال له الرجل : بالله لِمَ أطفأت الشمعة ؟ قال : ويحك إنه ابن أختي ، وإنني كرهت أن أشاهده حالة الذبح ، فقال : وَلِمَ طلبت الماء سريعاً ؟ فقال الملك : إني آليت على نفسي منذ أخبرتني أن لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أنصرك ، وأقوم بحقك ، فكنت عطشاً هذه الأيام كلها ، حتى كان ماكان مما رأيت . فدعا له الرجل وانصرف الملك راجعاً إلى منزله ، ولم يشعر بذلك أحد (١) .

فهذا الخبر يدلنا على كمال اتصاف السلطان محمود بن سبكتكين بالعدل وإنصاف المظلومين من ظالمهم ، فحينما سمع بهذه الشكوى من ذلك المتظلم اهتم كثيراً وقام بالبحث والتحري بنفسه ، فلم تغلبه العاطفة نحو أقاربه على الحكم بالحق الذي دفعه إليه إيمانه الراسخ . . لم تغلبه من إقرار العدالة وإنصاف المظلومين وإن كانوا من عامة الناس ، وعقاب الظالمين وإن كانوا من أقرب أقاربه .

(١) البداية والنهاية ٢/ ٣٢ - ٣٣ .

لقد تأثر كثيراً من إقدام ابن اخته على تلك الجريمة النكراء منتهزاً
فرصة قرابته منه فمنع نفسه الطعام والشراب حتى ينصف المظلوم
ويردع الظالم .

وإن اتصف هذا السلطان بالعدل وإنكار المنكر والتخلق بمكارم
الأخلاق كان سبباً في انتصاراته العظيمة على الأعداء ، وبلوغه في
الفتوحات حداً لم يصل إليه غيره ، لأن من خضع لشريعة الله تعالى
وطبقها على نفسه وعلى من هم تحت ولايته ينال معية الله جل وعلا
بالحفظ والنصر والتأييد .

أما إصلاحاته التي ذكر منها ابن كثير بناء ذلك الجسر العظيم فإنها
تدل على اهتمامه بأمور رعيته ورحمته بهم ، ورغبته الصادقة في
الأعمال الصالحة ، رحمه الله رحمة واسعة .

* * *

- جهاد مسعود بن محمود وابناه مودود وإبراهيم في بلاد الهند -

١ - ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة خمس وعشرين وأربعمائة أن السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين سار بجيشه إلى بلاد الهند، وقصد قلعة سرستي، وهي من أمنع حصون الهند وأحصنها فحاصرها ، وقد كان أبوه حاصرها غير مرة لم يتهياً له فتحها، فلما حاصرها مسعود راسله صاحبها وبذل له مالاً على الصلح فأجابته إلى ذلك ، وكان فيها قوم من التجار المسلمين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها إلى مسعود من جملة القرار الذي عليه، فكتب التجار رقعة في نشابة ورموا بها إليه يعرفونه فيها بضعف الهنود بها وأنه إن صابروهم ملكها، فرجع عن الصلح إلى الحرب، وطم خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره ، وفتح الله عليه ، وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم ، وأخذ ما جاورها من البلاد (١) .

٢- ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أنه اجتمع ثلاثة ملوك من ملوك الهند وقصدوا «لهاوور» (٢) وحاصروها، فجمع مقدم العساكر الإسلامية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل إلى صاحبه مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين يستنجد به ، فسير إليه العساكر، فاتفق أن بعض أولئك الملوك فارقههم وعاد إلى طاعة مودود، فرحل الملكان الآخران إلى بلادهما ، فسارت العساكر الإسلامية إلى أحدهما ويعرف بدوبال هربانه فانهزم منهم،

(١) الكامل في التاريخ ٥/٨ - ٦ .

(٢) لعلها مدينة لاهور الحالية .

وصعد إلى قلعة له منيعة هو وعساكره وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل ، وحاصروهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم ، فطلب الهنود الأمان على تسليم الحصن ، فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلا بعد أن يضيفوا إليه باقي حصون ذلك الملك التي لهم ، فحملهم الخوف وعدم الأقوات إلى إجابتهم إلى ماطلبوا ، وتسلموا الجميع وغنم المسلمون الأموال ، وأطلقوا مافي الحصون من أسرى المسلمين وكانوا خمسة آلاف رجل .

فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني واسمه ثابت بالري فتقدم إليهم ولقيهم واقتتلوا قتالا شديداً ، وانهمت الهنود ، وانجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح ، وأسرَ ضعفاؤهم ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم .

فلما رأى باقي الملوك من الهند مالقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة ، وحملوا الأموال وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم فأجبيوا إلى ذلك^(١) .

٣ - ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة أن السلطان إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين غزا بلاد الهند فحاصر قلعة « أجود » وهي على مائة وعشرين فرسخاً من « لهاور » وهي قلعة حصينة في غاية الحصانة كبيرة تحوي عشرة آلاف رجل من المقاتلة ، فقاتلوه وصبروا تحت الحصار ، وزحف إليهم أكثر

(١) الكامل في التاريخ ٢٨/٨ .

من مرة فرأوا من شدة حربه ماملأ قلوبهم خوفا ورعبا ، فسلموا
القلعة إليه في الحادي والعشرين من صفر .

ثم ذكر أنه فتح قلعة روبال وموضعين آخرين يقال لاحدهما « دره
نوره » والآخر « وره » وكان النصر حليفه في كل تلك الحروب (١) .

وهكذا قام السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين بإكمال مابدأه
أبوه وثبت حكم المسلمين في الهند ، وكذلك ما قام به ابنه مودود
وإبراهيم ، وهذا الحكم الإسلامي في بلاد الهند الذي امتد تلك
السنوات الطويلة مكن لوجود الإسلام في الهند حيث استمر بعد ذلك
دخول الهنود في الإسلام وقيام الحكم الإسلامي فيها .

* * *

(١) الكامل ١٢٧/٨ .

الجهاد والفتوحات

بعد العباسيين

– جهاد السلطان محمد شاه البهمني –

هو محمد بن الحسن البهمني، السلطان المجاهد في سبيل الله . قام بالملك بعد والده سنة تسع وخمسين وسبعمائة بأرض دكن ، وافتتح أمره بالعدل والسخاء ، وسار إلى بلاد تلكانه سنة ثلاث وستين ، فقاتل أهلها وغنم من الذهب والجواهر الثمينة مالا يحصى ، وعاد إلى كلبركه ، ثم صار في سنة أربع وسبعين إلى تلك البلاد ، ولما عرف صاحبها عجزه عن المقاتلة أرسل إليه يطلب المصالحة على مال يؤديه ، فأبى محمد شاه ثم أجابه إلى ذلك على ثلاثمائة فيل ومائتي فرس وثلاثة عشر مائة هنّ وبلدة كُولكندة ، فأرسل إليه كل ذلك صاحبها وأرسل إليه سريراً مرصعاً من الذهب والجواهر ، فرجع إلى كلبركه وأرسل خمس الغنائم إلى الشيخ سراج الدين الجندي ليفرقها على من يستحقها من السادة والمشايخ .

وفي تلك السنة قدم إليه صاحب بيجانكر وأخذ قلعة مدكل عنوة وقتل ثمانمائة من المسلمين ممن كانوا فيها ، فلما سمع محمد شاه اشتعل غضباً وحلف أنه يقتل من الوثنيين مائة ألف في قصاص المقتولين ، ثم جعل ولده المجاهد وليّ عهده وأوصى إليه وسار بتسعة آلاف فارس إلى صاحب بيجانكر وكان معه ثلاثون ألف فارس وتسعمائة ألف راجل^(١) ، ونهر كشنه كان عظيماً كثير الزيادة لا يخطر على قلب أحد أن محمد شاه يقدر على عبوره ، وأيده الله سبحانه على العبور فأقام على شاطئه ، وألقى الله تعالى الرعب في قلب

(١) هكذا جاء هذا الرقم في الخبر ، ولعل فيه خطأ أو مبالغة من الراوي .

صاحب بيجانكر فهابه وبعث الأحمال والأثقال كلها إلى بيجانكر، وأقام بمعسكره ليستشير أصحابه في الحرب، فإن رضوا بالحرب حاربوه وإلا يذهب إلى بيجانكر ويتحصن بها، والأحمال التي بعثها إلى بيجانكر لم تتجاوز ميلين لشدة الوحل ذلك اليوم، فلما سمع محمد شاه أنه ينتهز الفرصة للفرار بكر إليه بعساكره، فتركوا الفيلة والأموال وماكان معهم من الأحمال وفروا إلى قلعة أودني فأقام محمد شاه في معسكره وقبض على أمواله وأمر بالقتل، فقتل من الوثنيين في ذلك اليوم سبعين ألفاً من الرجال والنساء والولدان من غير تفریق، وحصل له من المغنم ألفان من الفيلة وثلاثمائة من عجلات المدافع وسبعمائة من الأفراس .

ثم سار إلى مدكل وأقام بها، ولما انقضت أيام المطر قصد قلعة أودني فلما سمع صاحب بيجانكر استخلف بها ابن أخيه وذهب إلى ناحية من نواحي بلاده، فسار محمد شاه إلى بلاد بيجانكر مع المقاتلة، وأرسل الأحمال والأفيال إلى كلبركه وقصد معسكر صاحبها، فبعث إليه صاحب بيجانكر مقدم عساكره بأربعين ألف فارس وخمسمائة ألف راجل، وكان عساكر محمد شاه خمسة عشر ألف فارس وخمسين ألف راجل مع ما لحق به من بعض عساكر الأمراء بعد خروجه عن كلبركه، فالتقوا واقتتلوا وانهزم الوثنيون، وأكثر محمد شاه في القتل فلم ينج منهم إلا القليل النادر، وأقام بها سبعة أيام .

وسار محمد شاه في أثر صاحب بيجانكر وحاصرها وضيق على أهلها وأدام الحصار إلى شهر كامل، ثم دبر الحيلة وتمارض وأمر

برجوع العساكر من بيجانكر ، فلما سمع المشركون ذلك طمعوا في قتلهم ونهب أموالهم ، فخرج صاحب بيجانكر من القلعة وتعقب المسلمين حتى وصل إلى ماء تمهندره وعبرها ووصل إلى أرض قفراء ، فقام محمد شاه من فراشه وجلس للناس وقت المساء وقويت عساكره برؤيته فأمرهم أن تجهزوا للحرب ، وسار بعساكره في الليل إلى معسكر المشركين وكانوا مشغولين بالرقص والغناء ، ولم يعلموا بمجيئه إلا حين وقف على رؤوسهم في البكرة ، فاختلت حواسهم وفر كل واحد منهم إلى ناحية من نواحي الأرض وتركوا جميع مالهم من الأموال والأحمال ، وأمر محمد شاه بقتلهم فقتل منهم حينئذ عشرة آلاف ، وغنم محمد شاه أموالاً طائلة ، ثم تعقبهم إلى أربعين ميلاً من بيجانكر وقتل وغنم ، فاضطروا إلى الصلح وأرسل كشن راي إلى محمد شاه يطلب الصلح على مال يؤديه عاجلاً ، فرجع محمد شاه إلى كلبركه واشتغل بمهمات الدولة ، واستقل بالملك سبع عشرة سنة وتسعة أشهر (١) .

في هذا الخبر مواقف جهادية عالية منها :

١ - جرأة السلطان محمد شاه على ملاقاته جيش يتكون من ثلاثين ألف فارس وتسعمائة ألف راجل - كما جاء في الرواية - بتسعة آلاف فارس ، وهذا الرقم المذكور لجيش الأعداء قد يكون فيه مبالغة ، ولكنه يدل على أن جيش الأعداء كان كبيراً وأن الفارق بين الجيشين

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل / ٢٩٩-٣٠١ نقلاً عن الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام لعبد الحى الندوي .

كبير جداً ، وهذا يدل على جسارة عظيمة ، وشجاعة عالية ، واختيار جيد للجنود ، ولاشك أن الروح المعنوية لجيش المسلمين كانت عالية جداً ، وماذلك إلا من قوة تمسكهم بالإسلام ، حيث كان لعلماء الدين آنذاك دور كبير في تربية الأمة على الاستقامة والإخلاص .

٢ - إقدام السلطان محمد شاه على عبور نهر كشنه مع كثافة وريادة مائه ، بحيث يغلب على الظن - حسب المعتاد - عدم القدرة على العبور ، وذلك - بعد توفيق الله تعالى - شاهد على شدة الإقدام وقوة الحماس عند المسلمين ، ولعل هذا الإقدام الشديد الذي يصل إلى حد المغامرة كان سببا من أسباب إصابة الأعداء بالرعب من المسلمين .

٣ - دقة رصد السلطان محمد شاه ، حيث علم بما يدور في معسكر الأعداء من المشاورة على الإقدام على قتال المسلمين أو التحصن بمدينة « بيجانكر » ، ثم ماكان عليه هذا السلطان من الحزم واغتنام الفرص المناسبة ، حيث أقدم على قتال الأعداء مع أول النهار قبل أن ينسحبوا وكانوا في حال تردد وانهزام معنوي ، فكان ذلك ممهدا لهزيمتهم عسكريا ، حيث لاذوا بالفرار وتركوا فيكتهم التي كانت هي أسلحتهم الثقيلة وتركوا أموالهم ، وأكثر المسلمون من القتل فيهم وهم منهزمون ، وكون المسلمين قتلوا بعض نساء العدو وأطفالهم مخالفة شرعية حيث لايجوز قتل النساء والصبيان إلا إذا شاركوا في القتال ، ولعلمهم كانوا قد شاركوا ، أو لعل ذلك صدر من بعض جنود المسلمين جهلا منهم بالحكم الشرعي في ذلك .

٤ - لم يكتف السلطان محمد شاه بهذا النصر المؤزر على أعدائه، بل سار خلفهم ليقضي على ماتبقى من قوتهم حتى لايفكروا بغزو المسلمين مرة أخرى ، وقد اعتبر أن الخطر على المسلمين ما زال باقيا مادام رأس أعدائه قائما على حكم بلاده ، فسار إليه حتى حاصر عاصمة ملكه « بيجانكر » ، وهذا التصميم منه على إنهاء ملك تلك البلاد دليل على خبرته الحربية والإدارية .

٥ - في المعركة الأخيرة مع عدوه استعمل الخداع الحربي حينما حالت التحصينات القوية والجدر السميكة بينه وبين عدوه، حيث أظهر أنه مريض ورجع إلى بلاده، وجازت هذه الخدعة على أعدائه فخرجوا يتعقبون المسلمين ليوقعوا بهم ، فلما وصلوا إلى المكان الملائم للحرب نهض السلطان محمد من فراشه وصار يزاول مهامه القيادية بقوة وحزم، ثم داهم الكفار وهم غارقون في لهوهم فأوقع بهم فلم يكن لهم مقاومة ، بل فروا وتركوا أمتعتهم .

وهكذا انتهت هذه المعارك المثيرة بين السلطان محمد شاه وعدوه صاحب « بيجانكر » بانتصار حاسم للمسلمين في جميع تلك اللقاءات .



– جهاد السلطان محمود بن محمد الكجراتي –

هو السلطان العادل المجاهد أبو الفتح سيف الدين محمود بن محمد بن أحمد الكجراتي المشهور بمحمود بيكره .

كان من خيار السلاطين ، ولد بكجرات سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، وقام بالملك بعد داود شاه سنة اثنتين وستين وثمانمائة وكان يوما مشهوداً ، واستقل بالملك خمساً وخمسين سنة ، وفتح قلعة باردو وفتح قلعة كرنال وكانت من أمنع قلاع الهند ، وأنشأ مدينة في سفح الجبل وسماها مصطفى آباد وجعلها دار المملكة .

وفتح قلعة بيت ودواركا وفيها صنم من أشهر أصنام المشركين في الهند ، يحجون إليه ويرون من العبادة تكلف المشاق في الوصول إليها ، حتى إن منهم من ينبطح على وجهه ويمد يديه أمامه ويقف ثم يضع قدمه على منتهى يده وينبطح ويمد يده ويقف ، وهكذا يقطع الطريق إليها ولو من مسافة أشهر ، فملكها سنة خمس وثمانين وثمانمائة ، وسار إلى جانپانير وحاصر قلعتها ، وكانت قلعة حصينة متينة على قلة جبل ^(١) لاتكاد تفتح ، فضيق في الحصار وحاصرها مدة طويلة حتى فتحها سنة تسع وثمانين وثمانمائة ^(٢) .

وهكذا قضى السلطان محمود بن محمد الكجراتي على ذلك الصنم الذي يعظمه الوثنيون في الهند ويحجون إليه ، ويتكلفون المشاق

(١) رأس جبل .

(٢) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى / ٨٧٧ ، نقلا عن « الإعلام

بما في تاريخ الهند من الأعلام » للشيخ عبد الحي الندوي الحسنى .

في بلوغه ، وإن القضاء على الأوثان من أهم الوسائل الناجحة في الدعوة إلى التوحيد ، لأن الأصنام هي أكبر العوائق التي تحول بين العقل والطموح نحو المعاني السامية التي يدعو إليها الإسلام ، فإذا أزيلت ولم يحصل على من أزالها ضرر فإن الناس من عابديها يفهمون بأنها لا قيمة لها في الضرر والنفع ، فيصبحون بعد ذلك مهينين لقبول دعوة التوحيد .

ومن مآثره الجميلة قيامه بالعدل والإحسان وإنفاذ أمر الشرع في السياسة ، ومما يحكى عنه في ذلك أنه بلغه عن بهاء الملك بن علاء الملك ألف خان سهراب أنه قتل سلاحداراً^(١) له فطلبه ، فلاذ بعماد الملك وعضد الملك واستجار بهما ، فلم يجدا لخلاصه سبيلاً سوى نسبة القتل إلى غيره ، فأرضيا شخصين على ضمان الخلاص لهما ، وقد الإقرار به سعيًا في الدية وكبانا عوّلًا عليها في الخلاص فلم تقبل الدية ومضى الحكم بقتلهما وخلص بهاء الملك ، وبعد يسير وقف محمود شاه على حقيقة الحال وتعب إلى الغاية وجلس للقضاء وأمضى في الملكين حكم القصاص ، ولم يمنعه كونهما من عظماء ملوكه الخاصة به من أن يعمل بالشرعة^(٢) .

وهذا التصرف من هذا السلطان يدل على قوة إيمانه بالإسلام وخشيته من الله تعالى ، فإن مما ينظر إليه الساسة في تثبيت سيادتهم مداراة رؤوس مراكز القوى في دولهم ، وإن أضر ذلك بعامة الناس ،

(١) أي حافظ الأسلحة ومتوليها .

(٢) المختار المصون / ٨٧٨ ، عن « الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام » .

وهذا عمل أهل الدنيا لأنهم ينظرون إلى تثبيت السلطة من غير نظر إلى الحساب في الآخرة ، أما أهل الآخرة فإنهم ينظرون إلى النجاة من المسئولية أمام الله تعالى يوم القيامة ، وهذا يتطلب منهم أن يحكموا بالعدل حتى مع الكبراء ، وإذا كانت العدالة قد تفقد المسئول دعم بعض مراكز القوى فإنها تمنحه دعم الألف من الرعية الذين يتمتعون بعدله ، كما كانت حال هذا السلطان الذي بقي في السلطة خمسا وخمسين سنة .

ومن مكارمه أنه استقل بالملك خمسا وخمسين سنة وجاهد في الله حق الجهاد ووسع حدود ملكه إلى مالوه وإلى بلاد السند، ولكنه في تلك المدة الطويلة لم يطمح إلى بلاد المسلمين ولم يستشرف لها قط، وإذا استولى القوي منهم على الضعيف قام بنصرة الضعيف، كما وقع له في سنة ست وستين وثمانمائة إذ وصل إليه حاجب نظام شاه البهمني صاحب دكن يخبره أن محمود شاه الخلجي صاحب مالوه خرج إليه بعساكره، فعطف السلطان عنانه من الصيد وتوجه إلى سلطان يورجمن حضر معه، وأمر الوزير أن يلحقه بالعسكر، ولما نزل بسلطان يور قدم حاجب آخر يخبر بالحرب وأنه حاصر دار ملكه بيدر، فنهض السلطان من سلطان يور ، ولما كان منزله تهالتي قدم حاجب آخر يخبر برجوع الخلجي ، وذلك لأنه سمع بوصول محمود شاه الكجراتي فترك بيدر ورجع إلى مندو ، وكذلك في سنة سبع وستين وثمانمائة وصل حاجب نظام شاه يخبر أن الخلجي خرج بتسعين ألف فارس إلى حدود نظام شاه ، فنهض السلطان مع الحاجب وبلغ

الخليجي ذلك بفتح آباد من أعمال تلنكانه فرجع إلى دار ملكه، فكتب السلطان إلى محمود شاه الخليجي مامعناه : ليس من المروءة قصد طفل لم يبلغ الحلم وقد التزمت حفظ ملكه إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، فإن دخلت في حده خرجت إلى حدك وفيما يليك من جهات الكفر ما يغني عنه ويرفع درجتك بالجهاد .

وإذا انتهيت إلى السلا مة في مداك فلا تجاوز

وكذلك لما بلغ محمود شاه سنة سبع وسبعين وثمانمائة خروج النوتك القواسه على سلطان السند بلغ عددهم أربعين ألفا، وهي طائفة بحرية تسكن الجزر بنواحي السند ، لا تجتمع على طاعة أحد، إنما هي من لصوص البحر، فنهض من مصطفى آباد يسير كل يوم ستين فرسخا ، فلما قرب من السند تفرقوا، فتوقف السلطان بمنزله إلى أن وصل رسول ملك السند برسالة تتضمن شكره، فرجع إلى دار ملكه ، وكذلك لما بلغه أن جماعة من الأمراء تغلبت في خاندیس واختل بها نظام الملك نهض إلى برهانيوز بعساكره ، وولى عليها عالم خان بن أحسن خان الفاروقي أحد وارثي المملكة ، ولقبه أعظم همايون عادل خان ، وكان ابن بنته ، وذلك في سنة أربع عشرة وتسعمائة .

ومن ذلك أنه لما توفي محمود شاه الخليجي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وبلغ وفاته ترحم عليه فعرض عليه بعض أرباب الرأي الخروج إلى مندو ، فأجابه : ليس من الفتوة اجتماع مصيبتين في وقت واحد على أهل بيته : فقد ذاته ، وخلل جهاته .

ومن ذلك أنه لما سمع سنة ست وتسعمائة أن ناصر الدين شاه
الخلجي سم أباه غياث الدين الخلجي خرج إلى مندو وقصد تأديبه
لاملكه ، وبينما كان ينهض تواترت الرسل من ناصر الدين ببراءة ذمته
فتركه ، وفي كلها مفخرة عظيمة له (١) .

وبعد : فهذه أخبار عالية عن السلطان محمود بن محمد
الكجراتي في الزهد في الجاه ، والعفة عن دماء الناس وأموالهم ، فقد
عاش الأمراء المسلمون من حوله خمسا وخمسين سنة بسلام ، ونعمت
الهند بشيء من الاستقرار السياسي الذي ينتج عنه تمتع الناس بنعمة
الامن ، حيث كان لا يعتدي على الإمارات الإسلامية التي حوله ،
ولا يترك القوي من أولئك الأمراء يعتدي على الضعيف ، وهذه خصلة
حميدة وسياسة عالية ، ولقد سبق بذلك هيئة الأمم في مهمتها
السياسية العالمية ، ولكن بشكل مصغر اقتصر على الإمارات الإسلامية
في الهند ، ولقد كان ينطلق في هذه السياسة من واجبه الإسلامي ،
حيث جاء في الإسلام وجوب نصر المظلوم علي الظالم ، انطلاقا من
قول الله عز وجل ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا
فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ
فَإِنْ فَأَتْ فَاَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
(٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ٩ ، ١٠] .

وقول رسول الله ﷺ : «انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل :

(١) المرجع السابق / ٨٧٨ - ٨٧٩ .

يارسول الله أنصره إذا كان مظلوما ، أفرأيت إن كان ظالما كيف
أنصره؟ قال: تحجزه - أو تمنعه - من الظلم فإن ذلك نصره» أخرجه
الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (١).

* * *

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٩٥٢ ، الإكراه (٣٢٣ / ١٢) .

– جهاد السلطان بابر –

هو السلطان بابر بن عمر بن أبي سعيد بن ميران شاه بن تيمور التيموري .

تولى السلطة في « أندجان » من بلاد ماوراء النهر في عام تسعة وتسعين وثمانمائة وله اثنتا عشرة سنة، ثم وسع سلطنته فاستولى على أفغانستان وبعض الهند .

وشعر أحد أمراء الهند الوثنيين القدامى بخطر قيام حكومة يحكمها المسلمون الغزاة الوافدون من الخارج، وإفلات الأمر من يدهم، وهو الأمير « رانا سانكا » حاكم « جتور » ، وكان قائداً باسلاً محنكاً فعبأ جيشاً كبيراً ، واتفق معه من الأفغان من كان متصراً للأسرة اللودمية الأفغانية التي انتزع منها « بابر » الحكم، فتألف بذلك نحو مائتي ألف محارب، وتوجه الجيش إلى « اكړه » وتوجه « بابر » بجيشه وهو يتألف من اثني عشر ألف جندي، وذلك في جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وتسع مائة للهجرة، واستقر في موضع يسمى « كانوه » أو « خانوه » .

كاد الوهن يدب إلى جيش « بابر » فقام في الجيش وأعلن توبته عن تعاطي الخمر الذي كان معتاداً له، واستحلف قادة الجيش على الصمود حتى يقضي الله في شأنهم وحميت المعركة واستعر القتال، وكان الفتح للجيش الإسلامي ، وقتل من الجيش المنافس من لا يأتي تحت العد والحصر ، وكان فتحاً حاسماً قضى بقيام حكومة مسلمة، على رأسها الأسرة المغولية من أحفاد بابر دامت أكثر من ثلاثة قرون،

حتى انتزعها منها الإنجليز في سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف، وكانت هذه الحرب المقررة لمصير المسلمين السياسي في الهند في ثلاث وثلاثين وتسع مائة (١) .

في هذا الخبر بيان علو همة السلطان بابر ، حيث شملت إمارته بلاد ماوراء النهر وافغانستان والهند، وفي المعركة المذكورة التي كانت بينه وبين ملك الهند يظهر مثل من عظمة المسلمين الحربية، ومقدرتهم القتالية الفائقة، حيث انتصر السلطان بابر بجيشه الذي لا يتجاوز اثني عشر ألف على ملك الهند الذي يتكون جيشه من مائتي ألف، وإذا عرفنا أن وسائل القتال آنذاك مشتركة بين المتحاربين ، وأنه ليس هناك تفوق ظاهر في السلاح لأحد الفريقين المتقاتلين فإننا ندرك مدى القوة المعنوية التي يتمتع بها المسلمون .

وفي هذا الخبر إشارة إلى إدراك هذا السلطان بأن النصر الحقيقي هو من عند الله تعالى ، وأن عباده المسلمين ليسوا أهلاً لنصره وهم يرتكبون المعاصي، فكان منه أن أعلن توبته عن شرب الخمر، وهذا يعني أنه في تلك الحال كان في إقبال شديد على اللجوء إلى الله جل وعلا والتوكل عليه .

وفي هذا الخبر بيان أن المسلمين في الهند قبل حكم هذا السلطان كانوا في ضعف شديد وأن ملوك الهند الوثنيين قد ظهوروا عليهم، فكان قدومه وانتصاره إعزازاً لوجود المسلمين في الهند، وسبباً في دوام دولتهم فيها أكثر من ثلاثة قرون، ولهذا كانت هذه المعركة مصيرية حسمت واقع السلطة على الهند لصالح المسلمين .

(١) المختار المصون / ٨٤٣ - ٨٤٤ ، عن الإعلام بما في تاريخ الهند من الإعلام .

- جهاد السلطان عالمكير -

هو الإمام المجاهد أبو المظفر محيى الدين محمد أورنك زيب
عالمكير بن شاهجهان .

ولد سنة ثمان وعشرين وألف في أيام جده جهانكير بن أكبر
شاه، ونشأ في مهد السلطة ، وتولى الإمارة سنة ثمان وستين وألف،
فافتتح أمره بالعدل والإحسان ورفع المظالم والمكوس .

فتح الفتوحات العظيمة وساس الأمور وأحسن إلى الرعية وصرف
أوقاته في القيام بمصالح الناس ، وكلما فتح بلادا شرع في فتح أخرى
حتى لحقت حدود مملكته في الجهة الشمالية إلى حدود خيوا وبخارى،
وفي الجهة الجنوبية إلى البحر المحيط الهندي ، وفي الجهة الغربية إلى
سومناط على شاطئ بحر الهند وفي الجهة الشرقية إلى بوري منتهى
أرض أريسه .

وكان ماهرا بالرمي والطعن والضرب والفروسية وغيرها من
الفنون الحربية ، وكان شجاعا مقداما بأسلا لا يظهر له في الهيجاء فزع
ولاجزع ولا طيش ولا خفة ، بل من رآه ظن أنه قد جاء من بعض
المنتزهات وهو قد خرج من معركة تطير لها العقول وتشيب لها
الولدان .

وكان مشهوراً بالشجاعة منذ صغره، فقد جاء من أخباره أن والده
شاهجهان كان يوما يتفرج في البرج المشرف على نهر « جَمَن » على
مصارعة الأفيال التي كانت في عرصة القلعة فيما بينها وبين النهر،
والأفواج كانت قائمة بين ظهرائها وخلق كثير يتفرجون عليها في تلك

العرصة ، وكان عالمكير أيضا في ذلك الزحام وهو يومئذ في الرابعة عشر من عمره وكان على فرس على جري العادة، فإذا بفيلة قد ثارت وقصدت الأفواج ، ففر الناس كلهم من بين يديها إلا عالمكير فإنه ثبت على مقامه ، فتوجهت إليه الفيلة ولقت فرسه بخرطومها، وصرع عالمكير من صهوة الفرس ، ثم قام وسل السيف عليها ، ثم جاء الناس ودفعوها بالضرب والطعن وإيقاد النار وغير ذلك ، وهذه مفخرة عظيمة في الثبات والعزيمة قل أن توجد في أبناء الملوك في تلك السن .

ومن مآثره أنه نصب الجزية على الكفار بعد أن لم تكن ، وتم له ذلك مع أنه لم يتم لأحد من أسلافه .

ولقد اشتهر بالعبادة والزهد وكان ذلك من أسباب تفوقه في الجهاد، فقد حفظ القرآن الكريم بعد توليه السلطة، وكان يداوم على الطهارة بالوضوء، ويحافظ على الأذكار والأدعية الماثورة عن النبي ﷺ والصلاة في الليل وكان يصلي بالناس صلاة التراويح .

وقد وُصف بالملك العادل الزاهد ، وبلغ من الزهد مبلغا أناف فيه على ابن أدهم ، فإنه مع سعة سلطانه يأكل في شهر رمضان رغيفا من خبز الشعير من كسب يمينه .

وكان له اهتمام جيد بالعلم ومن اهتمامه بعلم الحديث أنه ألف كتاب « الأربعين » قبل أن يتولى السلطة، ثم ألف كتابا آخر بعد الولاية جمع فيه أربعين حديثا وترجمها إلى الفارسية وعلق عليهما الفوائد النفيسة ، وكانت له مهارة تامة بالفقه ، ويضرب به المثل في

استحضار المسائل الجزئية ، وقد صنف العلماء بأمره « الفتاوى الهندية » في ستة مجلدات كبار ، فاشتهرت في الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والرومية ، وعم النفع بها وصارت مرجعا للمفتين ، وقد أنفق على جمعها مائتي ألف من النقود .

وكان ماهرا في الإنشاء والترسل ، لم يكن له نظير في زمانه في ذلك ، وقد جمع شيئا منها كثيرا أبو الفتح قابل خان التتوي في « آداب عالمكيري » وعناية الله خان في « الكلمات الطيبات » و « الرقائم الكرائم » .

ومن مآثره أنه كان سخيا يبذل على الفقراء وأهل الحاجة العطايا الكبيرة ويسامحهم في الغرامات ، ومن ذلك أنه أبطل ثمانين نوعا من الضرائب في سنة تسع وستين وألف ، وكانت تُدْرُ عليه ثلاثين لَكًا في كل سنة (١) .

ومن ذلك أنه بذل أموالا طائلة في إصلاح الشوارع والطرق في نواحي الهند وافغانستان ، وحفر الآبار وأجرى العيون وأسس الجسور والرباطات وغير ذلك .

كما أنه اهتم بالمساجد فبنى مساجد كثيرة وعمر القديمة منها وجعل الأرزاق للأئمة والمؤذنين ، وجعل الرواتب للمساجد لتأمين ماتحتاج إليه من بسط وسرج وغير ذلك .

وكان مقتصدا في الخيرات غير مسرف في المال ، فإنه كان لا يعطي الشعراء ولا أهل الغناء خلافا لأسلافه فإنهم كانوا يسرفون في ذلك ،

(١) أي ما يعادل ثلاثة ملايين .

وكان إذا أعطى العلماء يشترط أن يكون ذلك في مقابل التدريس والإفادة ، وإذا بعث الأموال إلى الحرمين الشريفين - زادهما الله تشريفا - يشترط بأن تعطى لأهل الحاجة ، ولذلك كان الناس ينسبونه إلى البخل وحاشاه من ذلك .

ولم يزل على سيرته الحميدة حتى توفي بدكن سنة عشر ومائة وألف ، رحمه الله تعالى (١) .

* * *

(١) المختار المصون ١٣٧٠ - ١٣٧٨ عن « الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام » بتصرف .

— جهاد السلطان أحمد شاه الدراني —

هو أحمد شاه بن زمان خان الدراني المعروف بالأبدالي، نسبة إلى قبيلة كان أبوه أميراً عليها، وهو أفغاني الأصل ومؤسس الدولة الأفغانية بقندهار .

ولد سنة ١١٣٦هـ ، ولما توفي أبوه قبض حسين شاه صاحب قندهار عليه وأسرعه عنده، فلما غزا نادر شاه قندهار سنة ١١٥١هـ أطلق أحمد شاه من أسره، ووجهه إلى بلاد فارس، وجعله على فرقة من الفرسان واستأثر به وتفرس فيه النجابة والنبوغ، وكان معه عند غزوه للهند سنة ١١٥١هـ ، وتوسم فيه نظام الملك مؤسس الدولة الآصفية في حيدر آباد آثار الرشد والعظمة ، وتنبأ بأنه سيكون في يوم من الأيام ملكاً كبيراً ، ولما قتل نادر شاه حاول أحمد شاه أن يأخذ ثأره وبذل جهده فلم يساعده القدر لكثرة جيوش الفرس وقوتهم، فلجأ إلى معاقل الجبال في بلاد قومه الأفغانين ونشر راية الاستقلال وجرى تنويعه في جامع قندهار سنة ١١٦٠هـ ولقب نفسه « أحمد شاه » و« در دوران » فاجتمع إليه كثير من الأمراء بقبائلهم العديدة، وبذل فيهم أموالاً كثيرة ، وأحسن صلتهم ، فغزا بهم الجهات المجاورة لمملكته ، فاستولى على تلك الولايات ، وعلى قسم من مملكة الفرس، وجعل مركز سلطته قندهار، ثم اجتاز إلى أراضي الهند وداس أرض بنجاب وكشمير ، وغزا الهند عدة مرات بين ١١٦١هـ و ١١٧٠هـ ، وتوغل في البلاد حتى وصل إلى دهلي سنة ١١٧١هـ ، وصاحبها حينئذ عزيز الدين عالمكير الثاني ووزيره عماد الملك الذي

نصبه ، وكان داخله الحسد لامتداد سطوة وزيره المذكور وحاول كسر شوكته فلجأ عزيز الدين إلى أحمد شاه واستماله إليه ووافقه على أفكاره فحمله على أن يبقى له السلطة ودخل أحمد شاه دهلي واستباح غنائمهما وولّى ابنه تيمور شاه على بنجاب بعد أن أقام شهراً في دهلي ، وزوج ابنه بابنة صاحب الهند .

ثم خرج من دهلي بعد أن استخلفه عليها ، فلما خرج قام الوزير فطرده من دهلي وقتل سلطانه وأقام مكانه محيي السنة بن كام بخش بن عالمكير الأول فاهتبلت « المرهته »^(١) الفرصة وطرّدوا الأولياء وأقاموا أولياء من الهنود فجرد أحمد شاه عساكره سنة ١١٧٣ هـ وقصدهم ، فمضت عليهم سنة هو في التأهبات الحربية والمقاتلات الخفيفة إلى أن تحصن المرهته في بعض الحصون المنيعة فحاصروهم أحمد شاه وأكرههم على القتال ، فانتشبت الحرب وكان يوماً مشهوداً ، قاتلت فيه المرهته قتالاً شديداً وأبلوا بلاءاً حسناً ، وقد رأى أحمد شاه باب الفرج غير أنهم أطبقوا عليه من كل جانب ، وضيقوا على عساكره وبذلوا الجهد في المقاتلة فانكسرت عساكر أحمد شاه واستولى المرهته على دهلي وأسروا العائلة الملكية بجملتها واستولوا على كل المجوهرات غير أن أحمد شاه جدد القتال فكانت المعركة الحاسمة في ساحة پاني پت في سنة ١١٧٤ هـ ، واجتمعت الجيوش الإسلامية تحت رايته فظفر في هذه الواقعة بالمرهته وقتل منهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها من المرهته ثمانية وعشرين ألفاً ، وأسرا اثنين وعشرين ألفاً ، وفي تلك الأثناء خرج

(١) قوم من كفار الهنود .

عليه خـارجة من لاهور ، فسار إليها وانقض على المتمردين بجموعه
فهزمهم أقبح هزيمة وفتح للأفغانين طريق كشمير ، وتوفي أحمد شاه
سنة ١١٨٦هـ بقرب مدينة قندهار .

كان أحمد شاه من كبار القادة العسكريين ومؤسسي الحكومات
الذين نبغوا في منتصف القرن الثاني عشر الهجري ، قد جمع شمل
الأفغان ، ونظمهم في سلك واحد ، وضبط البلاد ، وحفظ الثغور ،
وسن القوانين العادلة ، وأقام الحسبة ، وكان جامعاً بين صفات الفروسية
ومكارم الأخلاق والنبـل ، محباً للعلوم والآداب ، أليفاً ودوداً ، وقوراً
مهيّباً إذا كان على منصة الحكومة ، متواضعاً بعيداً عن التكلف في
غير هذا الوقت ، متديناً حريصاً على صحبة العلماء والصالحين ، مكرماً
للسادة والمشايخ ، يذاكرهم في الأمور الدينية ، والمسائل
العلمية ، رحيماً كثير العفو عن الأعداء ، كارهاً للقسوة محباً للمساواة ،
منح الحرية الدينية لجميع الطوائف ، وشجع على النكاح الثاني
للأيامى ، الذي كان يكرهه الأفغان ويتعبدون منه ، حمل العلماء
والمؤلفين على وضع كتب في تاريخه ، وتسجيل وقائعه وأيامه ، وكان
كاتباً يؤلف ، ويتمنى أن يصل إلى درجة الولاية .

ومن أشهر مآثره وأعظمها أنه هزم المرهـة الذين شكلوا أكبر خطر
على الحكومة الإسلامية في الهند وعلى الكيان الإسلامي هزيمة
منكرة ، لم تقم لهم قائمة بعدها ، وكان في توجهه إلى الهند لحماية
المسلمين سهم كبير لشيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ،
الذي حث الأمير نجيب الدولة على دعوته إلى الهند ، وكان - لو بقي

في الهند - تاريخ آخر للمسلمين فيها ، ولكنه كان مرتبطاً ببلاده ومصالحها ، لا يحب أن يعيش بعيداً عن مركز سلطته وقوته ، فعاد إلى قندهار على أثر الفتح العظيم ، فاضطربت الأحوال في الهند ، ولم يستطع المسلمون أن ينتفعوا بهذا الفتح طويلاً لضعف القيادة ، وتفرق الكلمة ، فكان ماكان ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً^(١).

وبعد : فهذه صفحات من جهاد السلطان الكبير أحمد شاه الدراني ، والذي يلفت النظر هو معاركه مع كفار الهند « المرهتة » الذين انتهزوا فرصة الخلاف بين زعماء المسلمين فهجموا على البلاد وانتزعوا السلطة ، وأفسدوا في الأرض ، وإننا لنلاحظ أن السلطان أحمد شاه لما أخفق في قتالهم في المرة الأولى لم ييأس بل عاود الكرة بعد ذلك وهو يعلم أن مسلمي الهند لا طاقة لهم بهم ، لأنهم محاربون مهرة ويدافعون عن عقائدهم الباطلة ، وقد وفق في المرة الثانية بالقضاء عليهم توفيقاً عظيماً ، حيث لم تقم لهم بعد تلك المعركة قائمة ، وانقذ دولة الإسلام في الهند ، وهو يعتبر من المجاهدين الكبار الذين ابقوا دولة الإسلام في الهند مدة أطول .

ولاننسى دور العلامة المشهور ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي الذي كان سبباً في قدوم السلطان أحمد شاه لجهاد الكفار ، حيث كان يعلم بأنه هو الذي يستطيع التغلب عليهم .

* * *

(١) المختار المصون / ١٣٥٦ - ١٣٥٨ ، عن « الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام » .